د. نبيل فاروق

# حروب

## تاريخ الحروب على مر العصور

الجزء الأول

فريق متميزون
E-BOOK

دار دَوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**

**كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**

**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# حروب

تاريخ الحروب على مرّ العصور

**(الجزء الأول)**

د. نبيل فاروق

# عن الكتاب..

لكل إنسانٍ في هذا العالم نقطة ضعف جوهرية مهما بلغَ حجمُ قوَّتِه..

وفي هذا الكتاب حروب الجزء الأول.. سنتعرف على أساليب الحروب من جيل لآخر ابتداء من الحرب المباشرة بالسلاح مرورًا بحرب العصابات وفرض السطوة ثم حرب المناورات المفاجئة كالاحتلال.. وأخيرًا الحرب القائمة على الإعلام باختلاف وسائله.

تُرى ما هي أنواع أسلحة الحروب وتطورها مع الوقت؟ وما هي الاستراتيجيات التي تساعد رجال المخابرات في بلوغ أهدافهم كأحد أهم عوامل النجاح في أي حرب؟

سنتعرف معًا على مسار الحروب بكل التغيرات التي تطرأ عليها باعتبارها نتاجًا دائمًا لطبيعة الحياة التي نعيشها، وجزءًا أساسيًّا وفاصلًا في تمزيق صفحات الماضي ابتغاء في حاضرٍ آمنٍ، ومستقبلٍ أكثر أمانًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# إهداءٌ..

إلى كل من وجدَ نفسَهُ في غمار حربٍ.. على جبهة قتالٍ.. أو في خضم الحياة.

د. نبيل فاروق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## البداية..

في القرن السادس قبل الميلاد، وعندما كان العالم غارقًا في الجهل والصراعات، وضعَ القائد العسكري الأشهر "صن تزو" (Sun Tzu) أطروحته العسكرية الفريدة والمتميّزة، في كتاب من ستة آلاف مقطع صيني، في ثلاثة عشر فصلًا، كل منها تخصَّص في أحد أنواع وخصائص الحروب.. وعلى الرغم من مرور كل هذه القرون وتطوُّر العلوم والمعارف على نحوٍ غير مسبوق، ما زال كتاب "صن تزو" هذا دستورًا للعسكريين في كافة الحروب والمواجهات العسكرية؛ فالكتاب اعتُبرَ لقرون مرجعًا استراتيجيًّا وتكتيكيًّا لم يثبت خطأه أبدًا، وخاصة منذ ترجمة الفرنسية أميوث منذ مائتي عام في أوروبا، فاستفاد منه نابليون بونابرت في غزواته، ولجأت إليه قيادة الأركان النازية في بدايات الحرب العالمية الثانية، وصار مرجعًا تخطيطيًّا واستراتيجيًّا في عملية عاصفة الصحراء في بداية تسعينيات القرن العشرين، ولقد تأثر به زعماء عالميون، أشهرهم على الإطلاق "ماوتسي تونج".. والعجيب أنه وعندما تجاوَز نابليون القواعد التي أشار بها "صن تزو" في كتابه، بدأت مرحلة انحساره، وكذلك حدث للقوات النازية عندما استهانت بالقوة السوفيتية، فبدأت هزائمها التي انتهت باندحارها وسط الجليد السوفيتي.. والمهم هنا ليس الجانب العسكري أو الاستخباراتي في كتاب "فن الحرب"، وإنما أن بعض المتخصصين أدركوا أن القواعد التي وضعها "تزو" للحرب، تصلح للاستخدام في فن إدارة الأعمال والتنمية البشرية أيضًا وكأنها ليست وصفة عسكرية، على الرغم من أنها ساعدت "صن تزو" كقائد عسكري بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل جعل منهم ولأوَّل مرة في التاريخ جيشًا نظاميًّا بالمعنى المعروف اليوم، على هزيمة ممالك تملك مائتي ألف مقاتل مع تسليح ممتاز؛ لمجرد أن جيوش تلك الممالك تفتقر للتنظيم وحُسن الإدارة، ولهذا اعتبر الخبراء أن كتاب "فن الحرب" هو وصفة نجاح مثالية يمكن تطبيقها في الحياة المدنية كروشتة نجاح مضمونة.. ما توصَّل إليه الخبراء أشار إلى حقيقة مدهشة وهي أن مشوار الحياة في حد ذاته هو حرب قاسية تحتاج إلى تخطيط واستراتيجية وتكتيكات مدروسة حتى يمكن للمرء أن يفوز بالنصر في النهاية..

بالطبع هناك نجاحات لا تلتزم بأي قواعد، أو تلعب الصدفة فيها دورًا كبيرًا، ولكن هذه النجاحات مجرَّد استثناء من القاعدة ولا يمكن الاستناد إليها؛ حيث أن المصادفة شيء لا يمكن توقعه أو حسابه، وكما قال العالم "بوجارت" فالصدفة لا تأتي إلا لمن يستحقها.. تصوَّر مثلًا أن التفاحة سقطت من الشجرة إلى جوار "إسحق نيوتن" فاكتفى بمسحها وأكلها -كما تقول الرواية-!!!.. هل كانت نظرياته الخاصة بالجاذبية يمكن أن تصبح ركيزة

للرياضيات الحديثة وعلم الفلك المتطوّر، أو اللبنة التي بنى عليها "ألبرت أينشتاين" نظريتيه النسبيتين؛ الخاصة والعامة..

والأمر هنا لا يتعلق بنوعٍ محدودٍ من النجاح، بل هو متعلِّق بالنجاح على نحوٍ عام أيًّا كانت ماهيته، وأيًا كان مجاله.. في عام ألفين وتسعة، شاهد العالم كله رائعة المخرج المستقبلي "جيمس كاميرون" "أفاتار (Avatar)" والتي حققت أعلى إيرادات عرفتها السينما العالمية حتى لحظة كتابة هذه السطور، والفيلم من تأليف وإخراج وإنتاج جيمس كاميرون نفسه والذي علّق على النجاح المبهر للفيلم بعبارة يمكن اعتبارها روشتة جديدة للنجاح عندما قال: "صناعة فيلم ناجح ليست متعة.. إنما حرب".. فقد عملَ كاميرون على كتابة سيناريو الفيلم والإعداد له اثني عشر عامًا كاملين، حرص خلالهم على أدق التفاصيل، حتى إنه أحاط نفسه بجيش من الخبراء صمموا شكل مخلوقات كوكب "بندورا" الذي تدور فيه الأحداث من كائنات عاقلة وحيوانات مستأنسة ومفترسة وطيور وحتى النباتات والأشجار.. وحتى يصبح الفيلم تحفة من تحف السينما، أصرَّ كاميرون على الاستعانة بخبراء لغويات لصنع لغة كاملة يستخدمها سكان بندورا، وجعل خبراء الرقميات يبتكرون برمجيات وأدوات رقمية جديدة لنقل تعبيرات وجوه الممثلين الذين لم يظهروا على الشاشة إلى الكائنات الجرافيك التي رأيناها على الشاشة، ولهذا شعرنا وكأننا بالفعل في عالم آخر.. الفيلم تكلّف ما يقرب من مليار دولار، ولكنه ربح أكثر من ثلاثة مليارات..

وهكذا كانت الحرب التي قنع بها وشنَّها "جيمس كاميرون" لاثني عشر عامًا هي التي صنعت هذا النجاح بعد توفيق الله سبحانه وتعالى.. النجاح إذًا هو لحظة النصر في الجولة الأولى من نهاية حرب؛ ففي الحياة هناك حرب أخرى تبدأ عندما تضع الحرب الأولى أوزارها.. حرب الحفاظ على النجاح الذي لو وصلَ بك إلى الشاطئ فاسترخيت ونمت ستستيقظ لتجد أن أحدهم قد سرق قاربك وساقَه إلى شاطئه هو.. ومهما كان نوع النجاح فهو حصيلة حرب من بناء الأمم، إلى بناء المستقبل، فالطالب الصغير عليه أن يخوض حربًا مع مقرراته فيصنع لنفسه استراتيجية لاستيعابها وحفظها والتعامل معها حتى تأتي لحظة المواجهة على ورقة الامتحان فيحارب مرة أخرى؛ ليفوز بالنصر.. حتى لاعب السيرك والبلياتشو نفسه لا بُدَّ له من أن يحارب بالكثير من المران والتدريب وحسن أداء دوره حتى يحظى بالنجاح والفوز بتصفيق الجماهير في النهاية.. محمد صلاح مثلًا الذي تفخر به مصر كلها وصار مثلًا أعلى للشباب والكبار وحتى الأطفال، لم يفز بكل هذا بسهولة، لقد حارب طويلًا وبذل الجهد والعَرَق في التدريب والحفاظ على لياقته ومهاراته حتى فاز بما هو فيه الآن.. وهذا ما ينبغي أن يتعلمه كلُّ مَن أحبوه وانبهروا به

وعشقوا أداءه، وحتى مَن حسدوه وغاروا من نجاحه.. أن كلّ نجاحٍ هو حصادُ حربٍ طويلةٍ مُرهقةٍ.. حرب استراتيجية وتكتيك و... فن.

د. نبيل فاروق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (١)

# جيل وراء جيل

أدهشني وأزعجني بشدة ذات مرة حديثٌ تابعته في أحد برامج (التوك شو) على إحدى القنوات الفضائية التليفزيونية، التي استضافت رجل أمن عتيق الطراز خرج من الخدمة منذ أكثر من عشر سنوات، وسمعته يتحدَّث بكل ثقة مؤكِّدًا لمقدمَّة البرنامج أننا قد تجاوزنا حروبَ الجيل الرابع إلى حروب الجيل الخامس!!.. فعلى الرغم من أن الرجل لم يتابع التطوُّرات حتمًا فمنصبه السابق قد يمنح حديثه مصداقية يمكن أن تنتقل إلى المشاهد، فتختل معلوماته، وترتبك مفاهيمه، خاصة وأنه لو قلَّبَ كلَّ صفحات الإنترنت وتابع كل مواقع التواصل الاجتماعي أو حتى كان له قريب في الخدمة يمكن استشارته، لن يجد حرفًا واحدًا عمَّا يمكن تسميته بحروب (الجيل الخامس)!!.. فكلمة "جيل" هذه في تصنيف الحروب تعني سمة الحرب نفسها والتي يمكن أن تتغيَّر في تقنياتها وفي نُظُم تسليحها، وفي استراتيجياتها وتكتيكاتها، ولكنها تظل تسير على النسق نفسه..

هذا يذكِّرني بالارتباك الذي كان يصيب تلامذتي عندما كنت أقوم بتدريس فن السيناريو، عندما أشرح لهم معنى المشهد ومعنى ما نسميه "الديكوباج"، فالمشهد هو جزء من العمل الدرامي يبدأ في مكانٍ ما تبعًا للأحداث، وينتهي عندما يتحتم الخروج من ذلك المكان؛ لأن هذا يستتبعه نقل الكاميرا والإضاءة وهندسة الصوت والديكور وكل شيء..

أما "الديكوباج" فهو توزيع الزوايا والتركيز خلال المشهد نفسه، حيث يظل المكان كما هو، ولكنك تشاهد الحدث من زوايا مختلفة ربما كل بضع ثوانٍ.. ولو عقدنا مقارنة فسنجد أن الجيلَ في الحروب هو المشهد، أما الأنماط والأسلحة المختلفة خلال الجيل الواحد فهي الديكوباج فحسب.. دَعْنَا نأخذ مثالًا مباشرًا من الجيل الأوَّل للحروب (GW1) فذلك الجيل كانت سمته هي المواجهات التصادمية أو انقضاض جيش على آخر وهي عبارة عن حروب تقليدية بين جيشين نظاميين في مواجهة مباشرة، يمكن أن تتم باستخدام هراوات أو سيوف ودروع أو أسلحة خفيفة مثل المسدسات والمدافع الرشاشة أو حتى بين دبابات على الأرض أو طائرات في السماء..

تختلف الأسلحة والتكتيكات، ولكنها تظلَّ حربًا مباشرة تقليدية يطلقون عليها اسم (Conventional War).. سمة التقليدية والمواجهة المباشرة هي المشهد، أما اختلاف وتطوَّر نوع السلاح فهو الديكوباج.. ومهما طال زمن تلك الحروب التقليدية أو تطوَّرت أسلحتها فهي تُعتبَر كلها جيلًا واحدًا من الحروب،

ولا يعني انتقالها من الهراوات إلى القنبلة الذرية أنها قد صارت جيلًا آخر.. أما الجيل الثاني من الحروب (GW2) فهو حربُ العصابات أو (Gurilla War) وهي تشبه حروب الجيل الأوَّل، ولكنها لا تدور بين جيوش نظامية بل بين عصابات أو أطراف متنازعة للسيطرة على تجارة المخدرات أو سوق الرقيق الأسود أو مصادر الثروات الطبيعية أو حتى لفرض السطوة والسيطرة.. ولقد اعتبرت جيلًا من أجيال الحروب لأن أطرافها صار بإمكانهم استخدام المدافع الثقيلة؛ الدبابات، والطائرات، من خلال تجار أسلحة يسعدهم أن يشتعل العالم كله بالحروب؛ حتى تتضاعف ملياراتهم حتى إنهم في كثيرٍ أو معظم الأحيان يبيعون السلاح والمعدات الحربية للطرفين المتنازعين على حدٍّ سواء.. ثم جاء زمن الجيل الثالث من الحرب (GW3) وهو ما يُطلَق عليه اسم "جيل الحروب الوقائية" أو "الاستباقية (Preventive war)" كالحرب على (العراق) والتي تمت بحجة أنه يمتلك أسلحة دمار شامل، وهو ما ثبت عدم صحته فيما بعد..

ويقول الخبير العسكري الأمريكي "ويليام ليند" أن ذلك النوع من الحروب طوَّره الألمان في الحرب العالمية الثانية، وأطلقوا عليه اسم "حرب المناورات" والتي تتميَّز بالسرعة والمرونة في الحركة، وتعتمد على عنصر المفاجأة والقتال خلف خطوط العدو.. ثم نأتي إلى جيل الحروب الحالي وهو الجيل الرابع للحروب (GW4).. وحروب الجيل الرابع هي حروب أمريكية صرفة، تم تطويرها من قِبَل الجيش الأمريكي عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، وأطلقوا عليها اسم (الحرب غير المتماثلة) (Asymmetric warfare)؛ فعقب ضربة الحادي عشر من سبتمبر، وجدَ الجيش الأمريكي نفسه يحارب، لا دولة، بل عدة تنظيمات منتشرة حول العالم وهي تنظيمات محترفة وتملك إمكانيات كبيرة ولها خلايا خفية تنشط عشوائيًّا لتضرب المصالح الحيوية للدول الأخرى كالمرَافِق الاقتصادية وخطوط المواصلات وغيرها، في محاولة منها لإضعاف الدول أمام الرأي العام الداخلي لإرغامها على الانسحاب من مناطق نفوذها مثل تنظيم القاعدة وداعش وغيرهما.. وفي تلك الحرب التي يمكن أن نطلق عليها مصطلح (الحرب بالوكالة) يتم استخدام وسائل الإعلام الجديدة والتقليدية ومنظمات المجتمع المدني والمعارضة والعمليات الاستخباراتية وحتى النفوذ الأمريكي في أي بلدٍ، وكل هذا لخدمة مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وسياسات البنتاجون..

ولو راجعت الوثيقة الماسونية التي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر لوجدتها تتحدَّث عن سمات حروب الجيل الرابع لإسقاط الدول، مع فارق أنها لم تطلق عليها الاسم فحسب فأوَّل مَن أطلق مصطلح (حروب الجيل الرابع) أو (GW4) في محاضرة علنية فهو البروفيسير (ماكس مايوراينك) في معهد الأمن القومي الإسرائيلي عام 2004م وعرَّفها آنذاكٍ في اختصار بأنها: حرب

بالإكراه، إفشال الدولة، وزعزعة الاستقرار فيها، وعندما توشك على الانهيار يتم فرض واقع جديد عليها يراعي المصالح الأمريكية وحدها.. وقد حدَّد مايوراينك في محاضرته تلك عناصر حروب الجيل الرابع في خمس نقاط أساسية..

1- الإرهاب.

2- قاعدة إرهابية غير وطنية أو متعددة الجنسيات.

3- حرب نفسية مدروسة ومتطوِّرة للغاية من خلال الإعلام والتلاعب النفسي.

4- استخدام كل الضغوط المتاحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

5- استخدام تكتيكات حرب العصابات وإشاعة روح التمرَّد.. وعلى الرغم من أنه هناك فئة من الشباب تستنكر وتنكر وجود الجيل الرابع للحروب لأنها لا ترى مظاهر حروب الجيل الأول التقليدية من حولها من جيوش متقاتلة ودبَّابات متواجهة وطائرات تناور وتشتبك، إلا أن أي مُراجِع لما واجهته مصر عقب ثورة الثلاثين من يونيو 2013م سيرى في وضوح أن كل القواعد الخمس أو العناصر الخمسة لحروب الجيل الرابع قد استُخدِمَت معنا مع سقوط حكم نظام الإخوان.. الإرهاب متعدَّد الجنسيات ظهر في سيناء، وقنوات فضائية بعينها راحت تزيَّف الحقائق أو تتلاعب بها، وحرب الشائعات بلغت أوجها عبر كل وسائل التواصل الاجتماعي، وكل الضغوط استخدمت ضدنا من تقارير هيومان رايتس إلى منع السلاح وتجميد المعونات العسكرية وانتشار ضربات حرب العصابات من الهجوم على الأكمنة ومقرات الشرطة والجيش.. وعلى الرغم من كل هذا ما زال هناك مَن يسخر من الفكرة!!..

ولأن حروب الجيل الرابع تسعى لهدف أساسي وهو هدم الدول، فهي تتشكَّل وتتلوَّن في كل صورة يمكن أن تُسقِط دولة، والعجيب أن أهم سماتها وأقوى أسلحتها هو التشكيك في وجودها أساسًا، على الرغم من آلاف الدراسات العربية والأجنبية عنها، والتي يمكن متابعتها عبر شبكة الإنترنت ومن أن "كونداليزا رايس" مستشارة الأمن القومي في زمن كلينتون قد أشارت إليها في وضوح في حديث لها نشرته الـ "واشنطون بوست" عام ٢٠٠٥م، والأعجب أنه هناك من هم أشبه بالعميان العنيدين الذين يرفضون الاعتراف بوجود القمر؛ لمجرَّد أنهم لا يرونه ولا يشعرون له ببرودة أو حرارة، والتفسير الوحيد هو أنهم إما جهلاء وعنيدون لدرجة يصعب تصوُّرها، أو أنهم يمارسون دورًا -وربما عن جهل- من أدوار حروب الجيل الرابع.. خاصة وأنهم بإصرارهم يقحمون فئة جديدة من كسالى الثقافة وتنابلة المعرفة نحو بحيرة جهلهم أو

تآمرهم ليسقط فيها أكبر عدد من العامة، الذين عند إقناعهم بعدم وجود ما يسمى بحروب الجيل الرابع يتصوَّرون أن الدولة تفتعل وتتصنَّع كل هذا ويفقدون ثقتهم فيها فيضعف انتماءهم وتسهل السيطرة عليهم وإعادة توجيههم من كل صاحب مصلحة في إسقاط وانهيار الدولة..

ومما قد لا يدركه العديدون حتى من غير المتخصصين من رجال الأمن، أن وسائل حروب الجيل الرابع يمكن أن تتخذ صور الجرائم التقليدية ولكن على نطاق أكبر وانتشار أوسع وإمكانيات غير محدودة.. فاليوتيوب مثلًا قد يحوي عشرات الأفلام والمشاهد التي يتم تزييفها أو اجتزازها من سياقها؛ حتى تحمل معنى يخالف معناها الحقيقي، كأن تأخذ من الآية الكريمة عبارة (لا تقربوا الصلاة) وتنشرها وحدَها دون بقيتها (وأنتم سكارى) وتستطيع عندئذ أن تقسم بأن هذا جاء في القرآن الكريم ولا تشير إلى أنك قد اجتزأته من معنى لم يكتمل.. أو أن ترى مشهدًا تم تصويره وأضيفت إليه أصوات مختلفة توحي بأن المتحدِّث على الشاشة يقول شيئًا مختلفًا عمَّا يقوله فعليًّا.. التكنولوجيا والتمويل السخي يجعلان هذا ليس ممكنًا فحسب، بل شديد السهولة أيضًا..

وعدد الشائعات التي تُطلَق في الأشهر الأخيرة تكاد توحي بوجود شائعة جديدة تمس حياة المواطنين كل دقيقة واحدة تقريبًا.. ليس هذا فحسب بل إنه هناك أجهزة مخابرات معادية قد تقوم بتزييف العملة الوطنية وطرح ملايين منها في الأسواق حتى تنهار مع الوقت وتفقد قيمتها ويبلغ الغلاء حدًّا فاحشًا ويثور الناس أو تعمد إلى جمع العملات الأجنبية وحجبها عن الأسواق فيقل عددها ويرتفع سعرها أمام العملة الوطنية.. المخدرات أيضًا صارت وسيلة من وسائل حروب الجيل الرابع، باعتبار أن كبار مهربيها يحتاجون إلى الملايين من العملة الأجنبية مما يزيد من الطلب عليها فترتفع قيمتها أمام العملة الوطنية ويتضاعف الغلاء.. وهناك سعي مستمر لتأليب الفئات المهمشة والفقيرة على متوسطي الحال والأغنياء حتى تنبت في أعماقهم بذرة ثورة جياع تنهار معها أركان الدولة.. وكتيبة التشكيك في كل شيء وأي شيء تعمل لحساب حروب الجيل الرابع، حتى وإن كانت تجهل هذا وتسبح مع التيار فحسب.. حتى أفلام السينما يمكن أن تتحوَّل دون أن تدري إلى قطعة شطرنج على رقعة حروب الجيل الرابع؛ بأن تُظهِر السكيرين ومدمني المخدرات في صورة شخصيات لطيفة جذَّابة خفيفةَ الظل كثيرة العلاقات النسائية إلى حدٍّ يجعل الكثير من ضعاف النفوس من الشباب يحلمون باكتساب نفس الشخصية.. وكل هذا هدمٌ للمجتمع عن قصدٍ أو بدون قصدٍ.. أساليب ووسائل حروب الجيل الرابع عديدة ومتنوِّعة وأشبه بحرباء موهوبة تتبدَّل وتتلوَّن في كل مرة وفقًا للبيئة المحيطة بها، ولكنها وفي كل الأحوال تظل حروب جيل رابع، وليست حروب جيل خامس.. أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (٢)
# السلاح الجبار

تغيَّر العالم كثيرًا مع نهاية النصف الأوَّل من القرن العشرين، وبداية النصف الثاني منه؛ فالنصف الأوَّل من القرن العشرين كان حقبةً شديدة العنف كثيرة الدمار شهدت الحرب العالمية الأولى أو ما أطلق عليه أيامها اسم "الحرب العظمى" والتي استغرقت أربع سنوات وثلاثة أشهر وأسبوعًا واحدًا (28 يوليو 1914- 11 نوفمبر 1918م) بسبب اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فريناندو، وبلغ مجموع القتلى والمفقودين فيها ما يقرب من العشرين مليونًا، وقيل أيامها أنها الحرب التي ستنهي كل الحروب، وكانت أحد أسباب اندلاع الثورة الروسية 1917م والتي غيَّرت مجرى التاريخ، وأدت الحرب الأولى إلى سقوط الإمبراطورية الألمانية والروسية والنمسا والمجر والأهم انهيار الإمبراطورية العثمانية وتقسيم مناطقها على الدول المنتصرة، كما أدَّت أيضًا إلى إنشاء عصبة الأمم..

ولكن الحرب العالمية الأولى لم تكن تلك التي أنهت كل الحروب كما تصوَّر الكل؛ ففي عام 1933م تم تعيين أدولف هتلر مستشارًا لألمانيا حيث عمل على وأد الديمقراطية التي أتت به وإرساء دعائم نظام تحكمه نزعة الشمولية والديكتاتورية الفاشية وتحديًا لمعاهدة فرساي التي تم توقيعها في 28 يونيو 1919م وتعديلها في 10 يناير 1920م والتي حمَّلت ألمانيا مسؤولية الحرب العالمية الأولى وأغرقتها بتعويضات لكل الأطراف المتحاربة ومنعتها من تكوين جيش وطني أعلن هتلر التمرُّد، وامتنع عن دفع التعويضات وعمل على بناء جيشه، وطالب باسترداد كلّ ما تم اقتطاعه من ألمانيا لصالح الدول المنتصرة. وسرعان ما تطوَّرت الأمور لتندلع الحرب العالمية الثانية التي امتدَّت لست سنوات ويوم واحد (1 سبتمبر 1939- 2 سبتمبر 1945م) والتي راح ضحيتها ما يقرب من العشرين مليونًا من العسكريين فقط، وما يقرب من الخمسين مليونًا من المدنيين، وانتهت بهزيمة ألمانيا واليابان وحلفاؤهما وانتحار أدولف هتلر (كما أُعلِنَ أيامها) والأخطر أنها انتهت بمولد سلاح جبار لم يكن من السهل استيعابه في ذلك الحين.. القنبلة الذرية.. فخلال السنوات الأخيرة من الحرب كان الأمريكيون يعملون جاهدين على ما أطلقوا عليه اسم (مشروع مانهاتن) والذي كان يسعى لإنتاج سلاح جبار يعتمد على انشطار أو اندماج الذَّرَّة مع ما يولِّده هذا من طاقة هائلة مسبِّبة دمارًا شاملًا في مساحة كيلو مترات من مركز تفجيرها..

وعلى الرغم من سقوط برلين في 2 مايو 1945م وانهيار الرايخ الثالث واستسلام ألمانيا رسميًّا، بقيت اليابان تُواصِل القتال، وكان جنرالات أمريكا

يرغبون في شدة في تجربة سلاحهم الجبار ومعرفة مدى تأثيره في أرض المعركة، وعندما عرضوا الأمر على الرئيس الأمريكي آنذاكٍ "هاري ترومان" تردَّد ورفض في البداية باعتبار أن ألمانيا قد سقطت، وسقوط اليابان صار مسألة وقت فحسب، ولكن جنرالاته أقنعوه بأنه لا قيمة لامتلاك سلاح جبار ما لم يدرك الكل قوته ويعلمون أنهم يمتلكونه..

وهكذا وقَّع "ترومان" الأمر التنفيذي وخرجت طائرة أمريكية في السادس من أغسطس 1945م حاملة القنبلة النووية الانشطارية المسماة بـ "الولد الصغير" (Little Boy) لتلقيها على مدينة هيروشيما اليابانية وتمحو المدينة من الوجود تقريبًا وتقتل منها مائة وأربعين ألفًا من اليابانيين مات نصفهم فورًا، ولحق بهم النصف الآخر متأثرًا بالحروق الإشعاعية والعادية والجروح والصدمات، ومات ما يقرب من ألف شخص فيما بعد من التأثيرات المتأخرة للإشعاع.. وبقدر صدمة اليابانيين إلا أنهم عجزوا عن استيعاب ما حدث، وراحوا يحاولون التكهُّن بكيفية محو مدينة بأكملها من الوجود في غمضة عين وتصوَّر بعضهم أن أمريكا وحلفاءها أرسلوا عشرة آلاف طائرة ألقت كلها حمولتها المتفجِّرة في آنٍ واحدٍ، وتمادى بعضهم فقال إن الأمريكيين قد أسقطوا أطنانًا من الفسفور على المدينة ثم أشعلوها بقنبلة حارقة واحدة، ولم يصدقوا حتى ما أعلنته أمريكا من أنها قد محت هيروشيما بقنبلة جبارة واحدة، ورفضوا الاستسلام، وفوجئ ترومان بجنرالاته يطالبونه بأمر تنفيذي جديد لإلقاء القنبلة الثانية التي أسموها "الرجل البدين" (Fat Man) على مدينة ناجازاكي. وثار ترومان وأخبرهم أن التاريخ سيصنِّفه كأكبر سفاح، خاصة وأن اليابانيين سيستسلمون حتمًا عندما يدركون أن الأمر حقيقي.. ومرة أخرى نجح الجنرالات في إقناعه بأنهم قد أنتجوا طرازين من القنابل النووية؛ طراز انشطاري وآخر اندماجي، وهم بحاجة لمعرفة أي نوع أكثر قوة، ولهذا اختاروا ناجازاكي المساوية لهيروشيما في المساحة وفي تعداد السكان.. وأصدر ترومان الأمر بالفعل.

وفي التاسع من أغسطس 1945م تم تكليف الطيار تشارلي سوييني بقيادة طائرته وإلقاء القنبلة التي لم يكن يدرك ماهيتها على ناجازاكي.. الانفجار دمَّر تسعين في المائة من منشآت المدينة، وقتل أكثر من خمسة وسبعين ألفًا، خمسة وتسعون في المائة منهم من المدنيين.. وفي الخامس عشر من أغسطس 1945م أعلنت اليابان استسلامها دون قيد أو شرط.. وانتهت الحرب العالمية الثانية.. وتم استبدال عصبة الأمم بمنظمة الأمم المتحدة (United Nation) في الرابع والعشرين من أكتوبر 1945م وضمَّت إلى عضويتها كل دول العالم المستقلة تقريبًا.. الأهم من هذا أن السلاح النووي لم يستخدم بعدها قَطّ وخاصة بعد أن أدرك الكل عمليًّا وعلميًّا أن تأثيره لا يقتصر على الانفجار وحده، ولكنه يمتد إلى تلوث إشعاعي قد تنقله الرياح والأمطار

إلى العالم كله تقريبًا.. وهكذا تحوَّل السلاح النووي من سلاح جبار إلى سلاح ردع فحسب لا يمكن استخدامه إلا إذا ما وصلت الأمور إلى حافة الهاوية، بحيث يعلو مبدأ شمشون (عليَّ وعلى أعدائي) فتنطلق الأسلحة النووية لتفني الكل بلا استثناء..

وكان من الضروري إيجاد سلاح جبار آخر يضاهي القنبلة النووية تأثيرًا، وليست لديه الآثار الجانبية المدمِّرة مثلها.. حاولوا لعقود إنتاج ما أسموه بالقنبلة النووية النظيفة، ذات التأثير الإشعاعي المحدود، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل.. وهنا قرروا الرجوع إلى تكنيكات الحرب العالمية الثانية، وإلى أحد أكثر لاعبيها شهرة بعد قادة الدول والجيوش.. إلى "باول جوزيف جوبلز" (29 أكتوبر 1897- 1مايو 1945م) وزير الدعاية أو البروبجاندا في زمن ألمانيا النازية من (14 مارس 1933 إلى 30 أبريل 1945م)، فقد اعتمد "جوبلز" على فن الكذب أو ما تحوَّل فيما بعد إلى فن الشائعات، وكان يدرك أن الشائعات سلاح جبار يمكنه هدم دولة بكاملها لو أحسن اللعب به واستغلاله، حتى إنه وضع بعض القواعد الأساسية له وكانت له عبارة شهيرة: "اكذب، اكذب، اكذب، فحتمًا سيبقى من كذبك شيء" ولقد اعتمد "جوبلز" على الشائعات لتثبيت أركان الحكم النازي وتعلية صورة هتلر، وتحطيم الروح المعنوية للشعوب المتحاربة.. وبعد إثبات عدم جدوى القنبلة النووية كسلاح حربي جبار، بدأت كل مخابرات العالم في دراسة وتطوير فن الشائعات والكذب الذي أنشأه جوزيف جوبلز وأحسن استخدامه، فالشائعة هي خبر أو مجموعة أخبار زائفة تنتشر في المجتمع على نحو سريع، ويتم تداولها بين العامة ظنًا منهم أنها حقيقة وخاصة لو امتزجت الشائعة بالتشويق وكانت مثيرة للفضول، على الرغم من أنها تفتقر دومًا إلى المصدر الموثوق أو أي أدلة تدل على صحة الخبر.. ومن الإحصائيات المثيرة للاهتمام أن سبعين في المائة من المعلومات المتداولة لدى العامة هي مجرَّد شائعات.. والكذبة لكي تكون متقنة لإنجاب شائعة لا بُدَّ وأن تعتمد على لمحة من حقيقة يمكن التأكُّد منها من مصادر موثوقة وتضاف الأكاذيب الكبيرة لتلك اللمحة بحيث تصنع شائعة زائفة قوية.. والشائعات يتم تقسيمها بأكثر من طريقة وفقًا للغرض منها ونطاق ومدى تأثيرها، والسرعة المطلوبة لانتشارها..

وليست الشائعات كلها حربية بل يمكن أن تكون هناك شائعات صناعية أو تجارية تنافسية، كما عاصرنا ذات مرة أن أحد المطاعم التي تموِّلها جماعات إسلامية قد أشاعت أن المطاعم الأخرى التي تحمل علامات تجارية أجنبية تستخدم لحومًا غير صالحة للاستهلاك الآدمي أو لحوم خنازير أو حمير.. أو أن يشيع منافس ما أن منتجات منافسه بها مقدار من الإشعاع الضار مثلًا.. ففي عام 2009م في المملكة العربية السعودية سرت شائعة تقول: إن ماكينات الخياطة "سنجر" القديمة تحتوي في داخلها الزئبق الأحمر، فارتفعت مبيعات

ذلك النوع الراكد من المخزون القديم لتلك الماكينات وبلغت سعرًا خرافيًا قبل أن يتبيَّن خطأ وكذب الشائعة.. وبعض الشائعات قد تنافي العقل السليم، وعلى الرغم من ذلك فهي تجد من يؤيِّدها ويسعى لترويجها كتلك الشائعة التي انتشرت في تسعينيات القرن العشرين بأن النجم محمد صبحي مسيحي الديانة! والشائعات التي انتشرت مؤخرًا عن وجود بيض وأرز وسمك صيني مصنوعين من البلاستيك.. الشائعة كانت مضحكة وبعيدة عن المنطق السليم تمامًا، ولكنها وجدت مَن يسعى لترويجها إما بحسن نية أو لغرض في نفسه، فمنذ فترة ومصر تواجه هجمة شرسة من كل أعدائها عن طريق شائعات بلغ عددها خلال ثلاثة أشهر فقط ما يقرب من واحد وعشرين ألف شائعة. وفي الشهر الأخير أثبتت دراسة علمية جادة انطلاق ثلاث وخمسين ألف شائعة، سبعون في المائة منها روَّجتها وسائل التواصل الاجتماعي والتي يسارع أصحابها بترويج كل شائعة تصل إليهم دون أدنى محاولة للتأكُّد من صحتها، وبعضها شائعات يمكن أن تؤثر في الاقتصاد المصري كله، ومروجوها من الحماقة وقلة العقل حتى إنهم لا يدركون ما يفعلونه، متصورين أنهم سيصيرون أبطالًا إذا ما سارعوا بنقل الخبر دون أن يدركوا أن مروجي الشائعة يرونهم كمجموعة من الغنم يمكن توجيههم وقتما وكيفما يريدون!!..

بعض تلك الشائعات يكون هدفها إحداث رجَّة في المجتمع وفقدان الثقة في نظامه الحاكم، أو إثارة مشاعر فئة من العامة؛ لدفعهم إلى الثورة على حكوماتهم، مثل شائعة تقليل أو إيقاف المواد التموينية، أو فصل العاملين في بعض المنشآت الحكومية، أو فرض ضرائب جديدة على أمور غير خاضعة للضريبة.. وفي كل الأحوال ومهما قلنا أو فعلنا أو حذرنا فسيظل هناك من يستمع إلى الشائعة ويؤمن بها ويردِّدها ويروِّجها، ومن هنا تأتي قوتها كسلاح جبار يمكن أن ينهش في بدن أمةٍ كاملةٍ مع مرور الوقت، وخاصة لو كانت شائعات من النوع الزاحف الذي أشرنا إليه في مقال سابق والذي يسري في المجتمع في بطءٍ وينتشر من لسانٍ إلى آخر حتى يزيح الحقيقة عن طريقه ويحل محلها في العقول فيصير عند العامة أشبه بالحقيقة، حتى إنهم قد يرفضون الحقيقة نفسها مهما حاولت إقناعهم بها.. والسلاح الوحيد الذي يمكنه محاربة سلاح الشائعات الجبار هو سلاح الشفافية والمصارحة فلو أنك صارحت الناس بالحقائق مهما بدت مُرَّة واستطعت اكتساب ثقتهم عبر شفافية علنية حقيقية لما استمعوا أو اهتموا بالشائعات، ولصارت الشفافية والمصارحة هي السلاح الجبار الجديد الذي يربح كل الحروب وتستحيل هزيمته.. مطلقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (٣)

# ليس بالقوة

كلُّ مَن اعتاد ربط مصطلح الحرب بالعنف والقوة والجيوش والمدافع والطائرات والدبابات، عليه أن يدرك أنه حتى قواعد الحرب التقليدية هذه قد انتهت وولى زمنها أو كاد؛ ففن الحرب جعل نظُم الحروب الحديثة تختلف؛ فلم تعد الدول تخاطر بدباباتها وطائراتها وجنودها إلا فيما ندر، وإنما اعتمدت استراتيجية جديدة للحروب لا تكلفها سوى المال وحسن إدارة الأمور واللعب على مفتاح الحرب النفسية فحسب وهو ما يُطلَق عليه مصطلح حروب الجيل الرابع (GW4).. وعلى الرغم من أن المصطلح حديث نسبيًا بالنسبة للعامة، حيث كان أول من استخدمه هو البروفيسير "ماكس مايوراينيك" في معهد الأمن القومي والدراسات الاستراتيجية الإسرائيلي عام ألفين وأربعة، إلا أن الفكرة نفسها ليست جديدة فلو عدنا إلى الوثيقة الماسونية التي تم كشفها في القرن السادس عشر إثر مصرع الفارس الذي كان يحملها إلى جهة لم تعرف أبدًا بسبب صاعقة أصابته في يوم مطير لوجدنا أنها تتحدث عن استراتيجيات حروب الجيل الرابع دون أن تذكر المصطلح الحديث نفسه؛ فهي اعتمدت على أن يندس الماسونيون وسط الناس ويتقمصوا دور الطيبة والمثالية على مسرح الحياة وهم يسعون لكسب ثقتهم واحترامهم وحبهم؛ لاستغلال هذا فيما بعد للسيطرة عليهم كمقدمة للسيطرة على العالم كله على المدى الطويل.. ولو راجعنا الصحف القديمة، سنُفاجَأ بأن الكثير من المشاهير المصريين في السياسة والفن وحتى الرياضة كانوا أعضاءً في المحفل الماسوني المصري عندما كان مُعلنًا إبان فترة الملكية وكانوا في الوقت ذاته يحظون بحب واحترام المجتمع!!!.. وفي الزمن الحديث وعندما تمت ترجمة الوثيقة الماسونية حملت عنوان (بروتوكولات حكماء صهيون) وكانت هذه التسمية في حدّ ذاتها لعبة كبيرة؛ لأنها حجبت اسم الماسونية من الترجمة، وجعلت الأمر يبدو صهيونيًا فقط على الرغم من أن هدف الماسونية الأسمى عبر أتباعها الذين يحتل بعضهم مكانات رفيعة في أقوى بلدان العالم هو أن يسود ملك اليهود في النهاية بعد أن ينشر الفوضى في العالم ثم يظهر هو جاهزًا ومستعدًا؛ لإعادة تنظيمه وحكمه.. وفي عام ألفين وخمسة وفي حديث أدلت به مستشارة الأمن القومي السابقة في عهد جورج بوش الابن "كونداليزا رايس" في واشنطن بوست، تحدثت عن نية الولايات المتحدة الأمريكية في ترسيخ الديمقراطية في العالم العربي عبر نشر الفوضى الخلّاقة وإعادة تنظيمه بما يتناسب مع المصالح الأمريكية واستخدمت نفس المصطلح الذي أتى في الوثيقة الماسونية (الفوضى الخلّاقة)، والمصطلح في حد ذاته خدعةٍ كبيرةٍ تتعارض مع عِلم المنطق والتفكير السليم؛ فالحديث عن

الفوضى الخلّاقة أشبه بالحديث عن قردٍ تركناه أمام لوحة أزرار كمبيوتر فكتب عشوائيًّا قصيدة رائعة يتغنى بها الكل!!!.. الفوضى هي الفوضى، لا يوجد منها نوعٌ خلّاق ونوعٌ غير خلّاق، ولكنها لعبة تزييف المنطق تمامًا، مثل تلك المقولة التي انتشرت بين الشباب إبان ثورة يناير ألفين وإحدى عشر وهي ضرورة هدم الكيان كله حتى يتم بناؤه على أُسس جديدة!!!.. المقولة تبدو سليمة ومنطقية بالنسبة لشخص ليست لديه فكرة استراتيجية واضحة، ولكننا لو حللناها علميًّا ومنطقيًّا سندرك أنها خاطئة تمامًا فلو هدمت الكيان كله فمن أين ستحصل على ما يمكنك إعادة بنائه به؟!... ومَن مِن أعدائك سيمنحك الفرصة عندئذٍ لإعادة البناء بعد أن صنعت ما عجزوا هم عنه لعقودٍ وهدمت كيانك بيديك؟!.. ولو سمحوا لك بإعادة البناء، فلن يكون هذا إلا بشروطهم، ووِفق رؤيتهم التي ستنتزع منك حتمًا استقلاليتك وتجعلك تابعًا ذليلًا خاضعًا لهم!!!.. والذين ردَّدوا المقولة دون التفكير فيها هم الدليل الحي على أن الطريق إلى النجاح هو حربٌ تحتاج إلى تفكير واقعي ومُنظَّم وحسن تفكير وقدرة على تنظيم الأمور ودراستها.. وفي كتابه "فن الحرب" يؤكد "صن تزو" على مبدأ هام جدًّا "لكل حربٍ نهاية، ولا حرب تمتد إلى الأبد. والجيش الناجح هو من يدرك متى تحين لحظة نهاية الحرب"... ولقد رأينا هذا في وضوح مع الشباب الذي ملأ الميادين في يناير ألفين وإحدى عشر مطالبًا برحيل النظام فلمَّا تحقَّق له هذا انتبه إلى أنه لم يكن يملك أبدًا أيدولوجية ولا استراتيجية ولا حتى فكرة لما سيكون بعد سقوط النظام، ولهذا فقد أسرع آخرون يستولون على ثورتهم وينشرون في البلاد فوضى استعمارية مدروسة تتيح لهم التخلص من كل من يعارضهم ومن شباب الثورة أنفسهم!!!... الشباب خسروا الثورة لأنهم لم يتبعوا قواعد "فن الحرب"، ولم يدركوا للحظة أن النجاح في أي أمرٍ في الوجود هو.. حرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (٤)

# ثبات.. وسُبات

“الثبات الانفعالي”.. مصطلح صار يتردَّد كثيرًا على ألسنة الكل، وفي كل مناسبة، ومن غير مناسبة، والكل يراه ويفهمه من وجهة نظره ويضعه بعض الأحيان أو في معظم الأحيان في غير موضعه.. وبالنسبة للغالبية العظمى من العامة يقتصر المصطلح على تفسير القدرة على التماسك وتمالُك الأعصاب في المواقف الصعبة أو عند التعرُّض للخطر!!..

والواقع أن هذا التفسير يشير بالفعل إلى جزءٍ من معنى ومفهوم الثبات الانفعالي؛ فالمعنى في الواقع يتجاوز هذا بكثير ولو كان استيعاب معنى المصطلح صعبًا؛ فالقدرة على بلوغه أصعب ألف مرة.. على الأقل.. ولو أن صفحاتنا القليلة تكفي فيمكننا أن ندرس الخطوط العريضة للمعنى الشامل لمصطلح (الثبات الانفعالي).. في البداية يجب أن نعلم أنه ليس في قدرة أي إنسان بلوغ مرحلة الثبات الانفعالي الفعلية؛ إذ أن الأمر يحتاج إلى أشخاص ذوي طبيعة خاصة للبدء في التدرُّب على الثبات الانفعالي.. في اختبارات القدرات في كلية الشرطة والكليات العسكرية يتم إخضاع كل المتقدمين إلى اختبار صغير، الهدف منه اختبار قدرتهم وصلاحيتهم للتدرُّب على الثبات الانفعالي، وخلال هذا الاختبار يتم اختبار قدرتهم وصلاحيتهم للتدرُّب على الثبات الانفعالي، وخلال هذا الاختبار يتم استفزاز المتقدِّم والضغط على انفعالاته وقياس درجة استجابته وتفاعُله مع هذا الاستفزاز.. مَن يتجاوزون هذا الاختبار على نحوٍ مناسب يتأهلون للانضمام مستقبلًا إلى جهات أمنية أعلى حيث لا مجال للانفعال أو العواطف المُفسِدة للعمل.. وعندما يتأهلون يبدأ تدريبهم على الخطوة الأولى للثبات الانفعالي ألا وهي الهدوء وتحكيم المنطق وتسييد العقل على العاطفة والنزعات الشخصية.. وعلى عكس ما يتصوَّر الكل يمكن لأي إنسان تدريب نفسه على الهدوء والتماسك أيًا كانت الظروف المحيطة به؛ وهناك متخصِّصون في هذا المجال لهم العِلم والخبرة والقدرة لتدريب المرء على السيطرة على كل انفعالاته وهذا ما يتميَّز به القادة أثناء الحروب، فقد يحقِّق العدو نجاحًا في جولة ما من الحرب أو الصراع، فلو أصيب القائد أو الجنود بالإحباط وامتلأوا بشعور الهزيمة فسيعني هذا خسارة الحرب دون أدنى شك، ولذلك فعلى قائد الجنود أن يكون هادئًا متماسكًا يستقبل الهزيمة بروح الدراسة والتفكير لمعرفة أسبابها ودراسة مبرَّراتها، ثم يكون مع هذا شديد التماسك أمام جنوده وهو يؤكِّد لهم أن ما حدث مجرَّد جولة يمكن تجاوزها، وعكس نتائجها، وبقدر ما يكون لديه من ثباتٍ انفعالي في الموقف تكون قدرته على نقل هذا الشعور بالثقة لجنوده أقوى وأفضل..

وهناك دروس وعِبَر كثيرة في التاريخ حول هذا، أشهرها الهجوم الياباني المفاجئ على الأسطول الأمريكي في ميناء "بيرل هاربور" في هاواي في السابع من ديسمبر عام 1941م والذي كان انتصارًا تكتيكيًّا ساحقًا لليابانيين، والذي أدَّى إلى غرق أربع بوارج وأربع غواصات صغيرة وسفينة تدريب، وتضرُّر عدد من البوارج والمدمرات، وتدمير مائة وثمانية وثمانون طائرة وتضرُّر عدد يقترب من هذا، ومصرع ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين عسكريًا، وإصابة ألف ومائتين وسبع وأربعين مع عددٍ من القتلى والمصابين المدنيين.. وأدَّى إلى إعلان الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على اليابان في اليوم التالي، الثامن من أغسطس 1941م..

وفي خضم ذلك الهجوم المباغت والعنيف، سيطر البعض على انفعالاتهم مما مكَّنهم من تكبيد قوة الهجوم بعض الخسائر.. الخسارة كانت كبيرة جدًّا، ولكن العسكريين الأمريكيين تماسكوا أمام الصدمة واستطاعوا استيعابها، ووضعوا خططًا بديلة لإعادة بناء الأسطول ورد الضربة لليابانيين؛ ففيما بين الرابع والسابع من يونيو 1942م، وبعد أشهر قليلة من كارثة "بيرل هاربور"، واجه الأسطول الأمريكي، الأسطول الياباني فيما عرف بمعركة "ميدواي" وأغرق كل حاملات الطائرات اليابانية أو أعطبها على نحوٍ غير قابل للإصلاح، ودمَّر خمس عشرة بارجة مساعدة، وأسقط مائتين وثمانية وأربعين طائرة حربية يابانية، وخمس عشرة طائرة مائية. وفي أغسطس 1945م أسقط الأمريكيون قنبلتهم الذرية على هيروشيما اليابانية، وفي التاسع من نفس الشهر أسقطوا قنبلتهم الثانية على ناجازاكي.. وانتهت الحرب بهزيمة ساحقة لليابان.. التماسُك والثبات الانفعالي هما مَن فعل هذا لو طبقناهما حسب مفهموهما الصحيح..

والواقع أن أهم سمات حالة الثبات الانفعالي هي السيطرة على المشاعر والنزعات الشخصية وهوى النفس والاكتفاء بالتركيز على الحقائق المؤكَّدة وحدها، فرجال المخابرات مثلًا في العالم أجمع يتم تدريبهم على إزاحة مشاعرهم الشخصية جانبًا ورؤية الأمور بعيون عملية فقط لا مجال فيها للمشاعر والعواطف.. حتى الحماس يُعَد من الانفعالات القادرة على إفساد الحكم على الأمور تمامًا؛ لأنه يعمل على توجيه العقل والفكر في الاتجاه الذي يمليه الحماس، وليس في الاتجاه الصحيح.. ربما لهذا لا تقبل أجهزة المخابرات على اختلاف أنواعها وانتماءاتها، المغامرين والمتحمسين لأن كليهما تقوده عاطفة إيجابية كانت أو سلبية، تجعل حكمه على الأمور وتعامله معها ينحرف دومًا عن الاتجاه الصحيح سواءً يمينًا أو يسارًا، تمامًا كما يحدث في لعبة الشطرنج، يستحيل أن يفوز فيها الأكثر حماسًا أو الأكثر طيبة أو حتى الأكثر إيمانًا، وإنما يربحها فقط الأكثر براعة، والأكثر قدرة على السيطرة على مشاعره وانفعالاته حتى النقلة الأخيرة على لوحة الشطرنج، ولهذا يتعلَّم

لاعب الشطرنج البارع وحتى المقامر المحترف، السيطرة على انفعالاته وملامحه بحيث لا يستشف منه خصمه ما يدور في ذهنه..

ففي حروب العقول وحتى الحروب العسكرية لو كشف العدو فيما تفكِّر لأمكنه هزيمتك في سهولة وبلا رحمة.. ودعونا نعود إلى ذلك التغيير الذي حدث في مجتمعاتنا عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير 2011م والذي بدا واضحًا على مواقع وسائل التواصل الاجتماعي، فالكل شعر بأنه قد تحرَّر وصار بإمكانه التعبير عن نفسه في حرية وخاصة مع الشعار الذي ردَّدته الثورة (عيش وحرية وعدالة اجتماعية) وانهيار جهاز الشرطة، وكما يحدث مع مُراهِق خطَا خطوته الأولى في مرحلة الشباب، انقلبت الحرية إلى حالة من حماس اندفاعي انفعالي، وانهيار لكل القيم والأخلاقيات والآداب العامة، فاندفع الكل في حالة مراهَقة فكرية يفرز كل ما اختزنه في أعماقه من خوف مرضي لسنوات، في كلمات بذيئة وعبارات هجومية شرسة على كل مَن يختلف معه، متناسيًا أن الحرية الحقة ليست فقط في أن تقول ما يحلو لك دون أن يحاسبك أحد، بل وهذا هو الأهم أن نحترم حرية من يعارضك أو يختلف معك في التعبير عن رأيه الذي يخالفك ويناقض فكرك دون أن تتهمه بشيء أو تهاجمه أو تسعى إلى هدمه وتخوينه، فكما أنت حُرٌّ فهو أيضًا حُرٌّ، هو لا يملك معاقبتك أو الثورة على ما تقول وما تعتنق من فِكرٍ، وأنت أيضًا لا تملك معاقبته أو الثورة على ما يقول وما يعتنق من فكرٍ.. لو أنَّك تنشد الحرية بحق، فالحرية هي خيطٌ واحدٌ تمسكه أنت ومعارضوكَ من طرفيه، لا يحاول أحدكما جذبه إليه حتى لا ينقطع.

ومن أعاجيب ما حدثَ عقب ثورة 2011م ظهور فئة تنادي بالحرية بمنتهى ديكتاتورية الفكر، وكأن الحرية يمكن أن تُولَد من رحم الديكتاتورية، والشهد يمكن أن يُفرَز من شجر الحنظل!!!...

وما نشاهده منذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا على مواقع التواصل الاجتماعي هو حالة من الغضب والكراهية والنقمة والثورة على كل من يعارض فكر أو رؤية أي شخص، إلى درجة قد تبلغ حدَّ السباب والشتائم والبذاءات، والأعجب أنهم لا ينالون شيئًا من كل هذا ولكنهم يواصلونه وكأن البذاءات هي إحساسهم بالضعف والعجز وقلة الحيلة ونقمتهم على الدنيا؛ لأنها لا تسير كما يحلو لهم، والحياة لا تخضع لإرادتهم.. ولو راجعت ردود الأفعال والتفاعل مع كل حدثٍ كبيرٍ يشغل الميديا، ستجد أن التفاعلات كلها تسير على وتيرة واحدة.. توجيه الاتهام وإصدار الأحكام منذ اللحظة الأولى ثم تصديق وتأييد كل ما يتفق مع الحكم الأولى حتى لو خالف العقل والمنطق والرفض الشديد على نحوٍ هيستيري لكل ما يتعارض مع ما أصدروه من أحكام دون تحقيق أو تدقيق أو معلومات مؤكَّدة، والغضب والثورة والهجوم الشرس على كل مَن

يقول أمرًا يخالف حكمهم، حتى ولو كان مسؤولًا رسميًا لديه أدلّة وبراهين مؤكّدة على كل ما يقول!!!.. والكل في المعتاد- من هذه الفئة - يصدِّق وينشر على الفور كل ما يريد من مصادر مجهَّلة ويرفض في عصبية، المصادر الرسمية الأخرى ويتهمها فورًا بأنها تحاول الخداع والتدليس، وأنها كاذبة ومنافقة وملفقة، وكأن المصادر المجهَّلة وحدها الصادقة على الرغم من جهله لحقيقتها وحقيقة نواياها والغرض الحقيقي خلفها، وعلى الرغم من أنه هو نفسه لا يملك دليلًا واحدًا على العكس.. أولئك لا يمتلكون ذَرَّة من الثبات الانفعالي، وغير مؤهلين أساسًا لاستيعابه أو التدرُّب عليه، فهم في الواقع يعيشون في سبات معلوماتي وكابوس صنعه غضبهم، ونسجته كراهيتهم، وغزلته نقمتهم التي تكون أحيانًا بلا سبب واضح أو منطقي!!!..

أصحاب السبات المعلوماتي هؤلاء يظلون طيلة أعمارهم غاضبين ناقمين، كارهين، مكتفين بهذه المشاعر السلبية التي تتعاظم في أعماقهم يومًا بعد يوم، ومستسلمين لها تمامًا، بل وتشعر أحيانًا أنهم يستمتعون بها على نحوٍ قد يستلزم علاجًا نفسيًّا؛ وكل هذا لأنهم عاجزون عن تغيير العالم من حولهم ودَفعه بكل ما عليه ومَن عليه إلى المسار الذي يريدونه، ولديهم شعور دائم حتى في وظائف يحسدهم عليها غيرهم أنهم فاشلون في تحقيق أي نجاحات حقيقية في الحياة، ويعتبرون كل نجاح لغيرهم منسوبًا للنفاق والخداع والخيانة والعمالة، مما يريح نفوسهم ويغذي تبريرهم بأنهم ليسوا فاشلين وإنما عظماء لا ينالون النجاحات التي ينشدونها لأن أخلاقهم ومبادئهم وحسد الناس لهم كلها تَحوُل دون هذا!!!...

الطب النفسي يصف هذه الحالة بـ "البارانويا الاجتماعية"، ولكن أصحابها على الرغم من انطباق كافة الأعراض عليهم، يرون أنهم أصح الأصحاء ويرفضون في شراسة اتهامهم بالمرضى النفسيين.. هذا لأنهم أطلَقوا العنان لكل مشاعرهم وانفعالاتهم وغضبهم ونقمتهم وكراهيتهم، ومزجوا كل هذا باستنتاجاتهم المبنية على عوارض مرضهم وقدَّموا هذا المزيج لأنفسهم قبل الآخرين باعتباره الحقيقة المجرَّدة التي لا حقيقة سواها والتي عليهم الدفاع عنها والقتال من أجلها بكل عنف وشراسة!!..

وهكذا فعلى الرغم من الحديث المستمر عن الثبات الانفعالي بالصورة الشعبية البسيطة، صارت لدينا فئة كبيرة تحيا في حالة من السبات الانفعالي والاجتماعي.. فئة عجزت عن معرفة الفارق الكبير الذي يتركَّز في حرفٍ واحدٍ.. حرفٍ يصنع الفجوة الكبيرة بين الثبات.. والسبات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# (٥)
# المستقبل.. أمس

التاريخ.. أحد أهم الدروس والعظات التي ينبغي أن يستفيد بها كل إنسان عاقل.. فمهما اختلفت الأزمان وتباينت جغرافية المكان يبقى الإنسان هو الإنسان.. نزعاته وطموحاته.. حبه وعشقه.. غضبه وكراهيته.. نجاحاته وأخطائه.. كل شيء يبقى على حاله من أيام آدم عليه السلام وحتى لحظة كتابة هذه السطور، ولكننا نسير فيه أشبه بالعميان؛ فلا نفيد منه ولا نتعظ من عِبَرِه.. قابيل قتل هابيل بدافع الحقد والغيرة للاستيلاء على ما ليس له؛ ليضع بهذا أساسَ الفكر الاستعماري الطامع دومًا في كل ما يمتلك الغير.. التاريخ نقلَ لنا كيف اتسعت هذه الظاهرة مع نموّ البشر وتكاثرهم، وظهور المجتمعات والقبائل، ثم المدن والدول والأمم والحضارات..

وعبر التاريخ كان الطامع والمستعمر يُوجِد دومًا لنفسه سببًا وتبريرًا لممارسة أطماعه، وتبرير نزعاته الاستعمارية، ليس ليقنع الشعوب المستعمرة، ولكن لإقناع رجاله أنفسهم الذين يحاربون خلفه ويقاتلون من أجله، وربما لا يدرك معظمهم حتى هدفَه الحقيقي الذي يبذلون أرواحهم في سبيله.. التتار مثلًا عندما هاجموا الأمة الإسلامية وأسقطوا الخلافة في بغداد، ادعوا أنهم أتوا لإنقاذ الإسلام والمسلمين، حتى تصدَّى لهم سيف الدين قطز وهزمهم في عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان 658هـ - الثالث من سبتمبر 1260م؛ ليكسر شوكتهم ويثبت زيف حجتهم وخديعة ادعاءاتهم.. التتار المغوليون لجأوا إلى الوحشية المفرطة؛ للسيطرة على أعدائهم، وبثّ الرعب في قلوبهم فقتلوا واغتصبوا وعذَّبوا وأحرقوا في كل قرية أو بلدة دخلوها، ولكن وحشيتهم هذه جعلت أعداءهم يرون أنه لا سبيل إلا مواجهتهم بكل القوة والبأس؛ باعتبار أن ما دون ذلك هو الموت المهين والتعذيب والدمار والعار.. ولم يتعلَّم أحدٌ من هذا الدرس..

ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا وتوقيع معاهدة فرساي المُذِلَّة التي أسدلت الستار على الحرب في 28 يونيو 1919م، انتشر الكساد الاقتصادي، وسادت البطالة في ألمانيا فتأسست الحركة النازية أو الحزب القومي الاشتراكي العمالي الألماني على يد "أنتوني دريكسلر" والصحفي "كارل هاريرا" وعلى رأسهما أدولف هتلر الذي زعم فيما بعد أنه المؤسس الوحيد للحزب، وسرعان ما صعد نجمه وعلا شأنه حتى تولَّى منصب مستشار الدولة عام 1933م، ثم لم يلبث أن حمل لقب "الفوهرر" أو "الزعيم العظيم" عام 1934م، ولم يكد هتلر -الذي شارك في الحرب العالمية الأولى كعريف مراسلة بسيط- يملك زمامِ الأمور في ألمانيا حتى أبدى عداءه المُعلَن

للشيوعية التي رأى أنها أس البلاء، ولليهود الذين نسبَ إليهم الكساد الاقتصادي والبطالة والسيطرة على موارد البلاد وأنشأ قوات العاصفة من شباب الحزب النازي، وجعل منهم كيانًا موازيًا للجيش في تنظيمه وتسليحه وراح يستخدمهم في قمع كل معارضة وكسر أنف كل انتقاد حتى إن سيرهم في شوارع ألمانيا بزيِّهم الأسود وصليبهم المعقوف المعلَّق على أذرعهم كان كفيلًا بإثارة الرعب في قلب كل من يراه من سكان ألمانيا.. وعلى الرغم من كل مَن حذروا مما يفعله، صعدَ نجم هتلر أكثر واستطاع عبر برنامج قاسٍ شديد التعقيد أن يخفض معدَّلات البطالة وينعش الاقتصاد، ثم ألغى كل سمةٍ ديمقراطية في ألمانيا، ولفَّق الاتهام بمحاولة قلب نظام الحكم للشيوعيين، وأحرق الرايختشاد الموازي لمجلس الأمة عندنا، وألغى الانتخابات، وفرضَ هيمنته على ألمانيا التي هوت في سرعة في مستنقع ديكتاتورية وحشية جديدة، قبل أن يعلن هو التمرُّد على بنود معاهدة فرساي ويجتاح بولندا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (٦)
# هوس المؤامرة

من أشهر المصطلحات وأكثرها انتشارًا في مصر ما بعد ثورتين، مصطلح "نظرية المؤامرة"، وعلى الرغم من أن تسعين في المائة ممن يردِّدونه يجهلون فعليًا معناه الشامل أو حتى ما يشير إليه، إلا أن الكل يتبناه على ألسنته وربما في عقله أيضًا وكأنها وسيلته للتدليل على ثقافته السياسية أو وعيه وإدراكه لما يدور حوله.. والواقع أن المصطلح على الرغم من حداثته عندنا، إلا أنه ليس مصطلحًا حديثًا؛ فقد وردَ ولأوَّل مرة في مقال اقتصادي عام ١٩٢٠م وإن لم يجرِ تداوله على ألسنة الناس وعلى صفحات الكتب والدوريات إلا في عام ١٩٦٠م، ولقد تم تداوله بكثرة متزايدة حتى صار مصطلحًا دارجًا أُضيفَ إلى قاموس أكسفورد في عام ١٩٩٧م.. ونظرية المؤامرة (conspiracy theory) مصطلح يشير إلى مواقف أو أحداث يفترض أنها نتاج مؤامرة لا مبرر لها، تستند في مضمونها على أفعالٍ غير قانونية أو شرعية تقوم بها حكومات أو جهات قوية في الغالب؛ لبلوغ هدف مباشر أو غير مباشر..

ولقد حاول العديدون وَضْعَ أُسس لنظرية المؤامرة، من أشهرهم العالم السياسي "مايكل باركون" الذي وضع ثلاث قواعد أساسية أوَّلُها أن الكون محكوم بتصميم ما، لا شيء يحدث فيه مصادفة، وثانيهما أنه لا شيء يكون تمامًا كما يبدو عليه، وثالثهما وهو الأهم أن كل شيء مرتبط ببعضه، وما يحدث هو أن المهوسين بنظرية المؤامرة ينتقون مِن كل ما حولهم من معلوماتٍ، فقط ما يتوافق مع ما يريدون التوصُّل إليه، ويهملون أو يتعامون عن كل ما سواه، وبالتالي يتحوَّل الأمر عندهم إلى حلقة مغلقة غير قابلة للمناقشة، وهكذا تبدو كل الأمور بالنسبة إليهم مؤامرة بإيمانهم وحده وبدون أي دليل..

ومن الصعب وضع تعريف واضح لنظرية المؤامرة؛ نظرًا لاختلاف وجهات نظر المؤمنين بها، ولكنها في كل الأحوال تحتاج إلى طرفين رئيسيين هما المتآمر- وهي الحكومات أو الأنظمة القوية عادة - والمتآمَر عليه وهو الشعب أيضًا في المعتاد، والغرض منها هو إخفاء الحقيقة أو تجميلها عبر صياغة حزمة من الأكاذيب على نحوٍ مدروس ومنسَّق.. أو هكذا يراه المؤمن بالنظرية، وأيضًا بدون أي دليل أو برهان.. والهوس بنظرية المؤامرة ليس مصريًّا، ولكنه عالمي؛ فالناس في روسيا مثلًا -على الرغم من سقوط الاتحاد السوفيتي- ما زالوا يختبرون سبعين عامًا من الشيوعية والقهر، وما زالوا يشعرون تجاه حكومتهم ومسؤوليهم بحالة من الشك والريبة وعدم التصديق حتى إن أكثر

من ثمانين في المائة منهم يشككون في كل ما يصدر عن حكوماتهم ومسؤوليهم، وما زالوا يعيشون داخل هستيرية المؤامرة وعدم الإيمان بكل ما يدور حولهم، وبالطبع تساهم المعارضة في نصيبٍ كبيرٍ من إقناع الشعب الروسي بوجود مؤامرات تحيكها الحكومات ضده، ولن يمكّن إقناعهم بالعدول عن هذا ما داموا يسعون إلى سُلطةٍ لم يبلغوها بعد..

والشعب الأمريكي يُعَدّ أكبر شعب يحيا في قاع هوس المؤامرة؛ فهو يرى في كل شيء من حوله مؤامرة ما على الرغم من القوانين التي تتيح الحصول على المعلومات باستثناء المعلومات العسكرية والتي تتعلَّق بالأمن القومي، ولأن الاستخبارات والأمن القومي جهات تعمل دومًا في سِريَّة هي أساس وجودها وعملها فما يحاك حولها دون أي دليلٍ من أكثر نظريات المؤامرة في كل الأذهان الأمريكية، ويكفي أن تراجع الأفلام الأمريكية لترى كم منها يتحدَّث عن مؤامرات وتآمرات تقوم بها المخابرات الأمريكية في داخل وخارج الولايات المتحدة..

ومن أشهر وأطول حكايات نظرية المؤامرة لدى الشعب الأمريكي حادثة اغتيال الرئيس الأمريكي الخامس والثلاثين "جون فيتزجيرارد كينيدي" (٢٩ مايو ١٩١٧- ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣م) والذي تولّى منصبه الرئاسي من ٢٠ يناير ١٩٦١م وحتى تم اغتياله برصاصة مباشرة في الرأس بوساطة "لي هارفي أوزوالد" في مدينة "دالاس"؛ إحدى مدن ولاية تكساس.. ولكن أوزوالد ظلَّ ينفي التهمة حتى تم اغتياله بدوره على يد رجل يدعى "جاك روبي" قبل أن تنتهي محاكمته؛ لذا فقد ظلت قضية اغتيال كينيدي مفتوحة لسنواتٍ نمَتْ من خلالها نظرية المؤامرة حول حقيقة اغتياله فهناك من نفى أن يكون أوزوالد هو القاتل، وأنه تم اتهامه للتغطية على القاتل الحقيقي، وأن جاك روبي قتله ليضع حدًّا لهذا؛ خاصة وأنه كان يعاني من سرطان الرئة الذي قضى عليه بالفعل بعدها بأربع سنوات عام ١٩٦٧م، والبعض أسرع يتهم المخابرات الأمريكية خاصة وأن عشيقته نجمة الإغراء الشهيرة "مارلين مونرو" (١ يونيو ١٩٢٦- ٥ أغسطس ١٩٦٢م) قد لقيت مصرعها على نحوٍ مفاجئ قبل اغتياله بعام واحد، وأشيع أنها كانت جاسوسة سوفيتية، وأن اغتيال كينيدي كان أفضل حتمًا من تورُّطه في قضية جاسوسية علنية.. البعض أيضًا من مُدمِني نظرية المؤامرة اتهم نائبه الذي خلفه كالرئيس السادس والثلاثين "ليندون بي جونسون" (٢٧ أغسطس ١٩٠٨- ٢٢ يناير ١٩٧٣م) خاصة وأنه قد ألغى بعض القرارات التي اتخذها كينيدي عقب حلفه اليمين مباشرة..

والبعض الآخر اتهم منظمة المافيا باعتبار أن كينيدي قد شنَّ حملة أمنية قوية ضدها.. وهناك نظريات عن تورُّط "فيدل كاسترو" في العملية وغيرها من نظريات المؤامرة التي تُبنَى على تصوُّرات وافتراضات دون دليلٍ واحدٍ.. ثاني

المؤامرات التي يغرق فيها الشعب الأمريكي نظرية مؤامرة الأطباق الطائرة؛ فمنذ أوَّل مشاهداتها عام ١٩٤٦م، وحتى يومنا هذا، مرَّت نظرية المؤامرة الخاصة بها بعدة مراحل متباينة؛ ففي البداية خرجت نظرية بأنها سلاح سوفيتي جديد يهدِّد أمن وسلامة الولايات المتحدة، ثم أعقبتها نظرية تفترض أن الأطباق الطائرة سلاح أمريكي سِرِّي يقوم سلاح الطيران بتطويره مع أكبر قدر من السرية. ثم تلتها نظرية عكسية تمامًا اعتبرت أن الأطباق الطائرة حقيقية، وأن الحكومة تخفي اتصالها بمخلوقات من الفضاء الخارجي؛ حتى تحظى وحدها بتكنولوجياتهم المتقدِّمة..

النظرية الأخيرة آمن بها السوفيت أيضًا عندما سبقتهم أمريكا في سباق الفضاء وأنزلت أوَّل رائد فضاء على سطح القمر في ٢١ يوليو ١٩٦٩م، على الرغم من أن السوفيت هم مَن بدأ سباق الفضاء بإطلاق أوَّل قمر صناعي وهو "سبوتنيك ١" في ٤ أكتوبر ١٩٥٧م، فالسوفيت ظلوا متفوقين في سباق الفضاء، وكانوا أوَّل مَن أطلق رائد فضاء بشريًّا ليدور حول الأرض وهو "يوري جاجارين" في ١٢ أبريل ١٩٦١م؛ فافترضوا أن تلك القفزة التكنولوجية الفضائية الأمريكية قد تحقَّقت عبر الاتصال مع كائنات فضائية متطوِّرة، وبهذا انقلبت نظرية المؤامرة نحو الاتجاه العكسي من النفي إلى الإثبات.. الهبوط على سطح القمر في حدِّ ذاته تحوَّل إلى نظرية مؤامرة كبرى في أذهان ٢٩٪ من الأمريكيين الذين يثقون في أنهم لم يبلغوا القمر قَطُّ، وأن ما عرضته شاشات التلفاز في العالم كله عن لحظة هبوط "نيل أرمسترونج" كأوَّل بشري يطأ أرض القمر ويقول عبارته الشهيرة: (إنها خطوة صغيرة لبشري وعظيمة للبشرية) لم يكُن سوى تمثيلية أخرجها المخرج العالمي "ستانلي كوبريك" مخرج "٢٠٠١ أويسا الفضاء"؛ فقط لكسر السوفيت نفسيًّا ومعنويًّا، وفي العالم كله تنتشر نظرية المؤامرة حول أمرين كبيرين.. أولهما ما يسمى بالكيمتريل وهي خطوط سحابية ليست طبيعية المنشأ تظهر في السماء أحيانًا، لا تحتوي على بخار الماء، ولها لون رمادي، وتتكوَّن من أنواع مختلفة من الغاز دون سبب أو مصدر معلوم، والثانية تسمى بنظرية الأرض المجوَّفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (٧)
# إرهاب

الإرهاب مصطلح جديد بالنسبة للغة العربية، فهي كلمة دخيلة على القاموس العربي، ولا وجود لها أو لمفهومها عند العرب القدامى، وعلى الرغم من هذا فلم يعد هناك من حديث في العالم العربي أو المجتمع الدولي يخلو من تصريح أو حتى إشارة إلى الإرهاب الذي انطلق يسود أركان الأرض الأربعة في العقد الأخير أو ربما منذ ألفين وواحد، فَيومُها شهدت الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الهجمات نشأت عن تحويل أربع طائرات نقل تجارية مساراتها، وتم توجيهها لتصطدم بأهداف محددة غير متوقعة.

نجحت ثلاث طائرات منها في بلوغ هدفها لتضرب برجيّ مركز التجارة العالمي في منهاتن نيويورك ومقر وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)؛ مما أدى إلى سقوط ألفين وتسعمائة وثلاثة وسبعين ضحية، بالإضافة إلى أربعة وعشرين مفقودًا، أضف إلى هذا آلاف الجرحى والمصابين من جرَّاء استنشاق الأبخرة والغازات السامة.. ومنذ ذلك اليوم أطلقت الولايات المتحدة -ولأوَّل مرة- مصطلح الحرب على الإرهاب والتي بدأت بالحرب على أفغانستان وإسقاط نظام "طالبان" الذي صنعته الولايات المتحدة نفسها لإسقاط الاتحاد السوفيتي، والحرب على العراق، والتي أسقطت نظام صدام حسين أيضًا.. والواقع، وعلى الرغم من أن واقعة الحادي عشر من سبتمبر قد أشعلت فتيل الحرب على الإرهاب، والتي لم تؤدِّ إلا لتعاظم التنظيمات الإرهابية وانتشارها في العالم العربي أساسًا وفي العالم كله بعدها، إلا أن تاريخ الإرهاب ليس بهذه الحداثة، وإنما قد يعود – تاريخيًّا - إلى ما قبل القرن الحادي عشر الميلادي، عندما شنت عصاباتٌ صهيونية يهودية عدة عمليات إرهابية ضد أثرياء الرومان، وتضمَّنت عمليات اغتيال لكل المتعاونين معهم، وفي تاريخنا هناك عملية اغتيال "علي بن أبي طالب" على يد الخوارج، وهي ما تُعَد أوَّل عملية إرهابية عربية معروفة..

والإرهاب في مُجمَلِه لا توجد له أهداف مُتفَق عليها عالميًّا، ولا مُلزِمة قانونًا، وحتى تعريف القانون الجنائي له، يشير إلى أنه أعمال عنيفة تهدف إلى خَلْقِ مناخ من الخوف والاضطراب في المجتمعات أو في أوساط بعينها كاستهداف أتباع ديانة أخرى أو مؤيدي سياسة بعينها، وفي بعض الأحيان تكون له أهداف أيديولوجية كما تفعل حروب الجيل الرابع عندما تستخدم الإرهاب استخدامًا منهجيًّا كجزء من خطة تدمير الشعوب أو إفشال الدول..

وفي العصر الحديث تم ضم أعمال العنف غير المشروعة والحروب، كنوع من إرهاب الدول، وفيه يتم عادة اللجوء إلى تكنيكات مماثلة للإرهاب من قِبَل تنظيمات إرهابية أو حتى أجهزة مخابرات عالمية؛ لفرض أو استبدال واقع ما بواقع بديل يخدم مصالحها.. ولكن وجود التعقيدات الدينية والسياسية جعل هذه التعريفات مطاطة في معظمها، وغامضة في أغلبها، ومُختلَف عليها في أكثرها، فالمسيحيون مثلًا عانوا الكثير من التنظيمات الدينية المتطرِّفة، ويعاني المسلمون من المثل في بعض بلدان أوروبا وبعض الولايات الأمريكية لأسباب سياسية تحكمها الصراعات الإقليمية والدولية..

ومن الناحية البحثية البحتة يُرجِع الباحثون أسباب الإرهاب إلى ثقافة حب الإنسان للسيطرة، وشعوره بالقوة مع زجر الناس وترويعهم حتى يفوز بما لا يمكنه الفوز به في الظروف العادية، ويتعارض مع المفاهيم الاجتماعية السائدة؛ لذا فقد وصف الباحثون الإرهاب بأنه العنف المتعمَّد الذي تقوم به جماعات غير حكومية، أو يقوم به عملاء سرِّيون من مُنطلَق سياسي بحت ضد أهداف غير حربية بغرض نشر الخوف والاضطراب في جموع الجماهير، ولو عدنا بالتاريخ إلى الوراء سنجد العمليات الإرهابية في القرن الأوَّل الميلادي التي وُجِّهَت لأغنياء اليهود المتعاونين مع المحتلين الرومان في شرق البحر الأبيض المتوسط، وفي القرن الحادي عشر، ظهرت جماعة "الحشاشون" وهي طائفة إسماعيلية نزارية انفصلت عن الفاطميين في أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي؛ لتدعو إلى إمامة نزار المصطفى لدين الله ومن جاء من نسله، وأسَّسها "الحسن بن الصباح" في فارس ثم في الشام التي هاجر إليها بعضهم، واتخذ الحسن من "قلعة الموت" في فارس مركزًا لنشر دعوته وترسيخ لأركان دولته، واتخذت دولة الحشاشين من القلاع الحصينة في قمم الجبال معاقلَ؛ لنشر الدعوة الإسماعيلية النزارية في إيران والشام؛ مما أكسبها عداوة شديدة مع الخلافتين العباسية والفاطمية والسلطنات الكبرى التابعة لهما مثل السلاجقة والخوارزميين والزنكيين والأيوبيين، بالإضافة إلى الصليبيين، إلا أن أحدًا من هؤلاء لم ينجح في اسئصالهم أو تحجيمهم طوال عشر سنوات من الحرب؛ إذ كانت الاستراتيجية العسكرية لهم تعتمد على الاغتيالات التي يقوم بها إرهابيون يلقون الرعب في قلوب الملوك والأمراء المعادين لهم، وتمكَّنوا بالفعل من اغتيال العديد من الشخصيات الهامة جدًّا في ذلك الوقت مثل الوزير السلجوكي "نظام الملك" والخليفة العباسي "المسترشد والراشد" وملك بيت المقدس "كونراد" حتى إن كلمة (Assassin) أو "المغتال" بالإنجليزية هي تحوير لاسم "الحشاشون" الذين كانوا رمزًا لكل الاغتيالات والعمليات الإرهابية في زمنهم، حتى قضى عليهم المغول بقيادة "هولاكو" في فارس عام 1256 م بعد مذبحة كبيرة، وإحراق للقلاع والمكاتب الإسماعيلية،

ثم قضى الظاهر بيبرس على مَن تبقَّى منهم في الشام عام 1273م لتندثر بذلك طائفة "الحشاشون" تاريخيًّا ويبقى الإرهاب.. وفي حقبة الثورة الفرنسية (1789-1799م) التي يصفها المؤرخون بفترة الرعب فقد كانت الفوضى التي صحبت هذا، قاتلة، وعنيفة إلى درجة وصفها بإرهاب الدولة، إذ لم يطل الرعب الشعب الفرنسي وحده، وإنما امتدَّ إلى كل الطبقة الأرستقراطية في أوروبا كلها؛ خشية أن تمتد النزعة إليها..

وفي العصر الحديث نجد أن الإرهاب قد تطوَّر كثيرًا، وصار أكثر عنفًا، وأكثر تنظيمًا؛ ففي أربعينيات القرن العشرين نجد اثنين من أعنف العمليات الإرهابية وأكثرها دموية، الأولى في عام 1946م عندما نفَّذت بعضُ العصابات اليهودية عملية تفجير "فندق الملك داوود" في القدس مستهدفة المندوب السامي البريطاني في فلسطين، والثانية هي "مذبحة دير ياسين وقانا" في عام 1948م ضد المدنيين والفلسطينيين، والتي تم تنفيذها بوساطة العمليات الصهيونية (هاجاناه).. وما زالت المملكة العربية السعودية تذكر حادثة الحرم المكي الشهيرة في عام 1979م، عندما اقتحم "جهيمان العتيبي" وجماعته، الحرم المكي واحتلوه وأُريقَت فيه الدماء..

وفي مصر يستحيل نسيان أشهر عملية إرهابية في عام 1981م عندما تم اغتيال الرئيس الأسبق محمد أنور السادات في وسط جيشه أثناء احتفالات السادس من أكتوبر بسبب توقيع اتفاقية كامب ديفيد.. وفي عام 1988م اختُطِفَت الطائرة الكويتية من قِبَل حزب الله الكويتي، وفي نفس العام تم تفجير طائرة "بان آم" فوق سماء لوكيربي الإسكتلندية.. أما في التسعينيات فقد تصاعدت الوتيرة الإرهابية على نحوٍ ملحوظ؛ ففي عام 1991م تمَّ شن عدة عمليات إرهابية في جنوب شرق آسيا (الفلبين) من قِبَل عدة جماعات أشهرها جماعة "أبو سياف"..

وفي عام 1995م تم تنفيذ عملية إرهابية بشعة من خلال بث غاز سام في محطة مترو أنفاق طوكيو، وفي نفس العام تم تفجير "أبراج الخُبَر" في الرياض في المملكة العربية السعودية؛ بسبب الوجود الغربي، وفي عام 1996م حدثت تفجيرات مانشيستر من قِبَل الجيش الجمهوري الأيرلندي.. وفي عام 1997م حدثت مذبحة الأقصر التي قام بها أفرادٌ من الجماعة الإسلامية، وراح ضحيتها عشرات السياح السويسريون، وكانت السبب في إقالة وزير الداخلية. وفي العام التالي 1998م أقدم تنظيم القاعدة على تفجير سفارات الولايات المتحدة الأمريكية في نيروبي ودار السلام.. وقبل أن ينتهي القرن، نفَّذ الشيشانيون عددًا من العمليات الإرهابية في روسيا.. ثم بدأ القرن الحادي والعشرين بتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر وأعقبها في 2003م تفجيرات استهدفت مبنى الأمم المتحدة وضريح الإمام علي والزوار الشيعة

في العراق، وفي نفس العام نفذ تنظيم القاعدة عدة تفجيرات في المملكة العربية السعودية، ولم يمضِ عامٌ حتى قامت حركة وطن الباسك والحرية (إينا) بتفجيرات مدريد 2004م، وفي العام الذي يليه 2005م حدثت تفجيرات لندن.. ثم كانت فترة هدوء تبعها دوي هائل في بغداد أسفر عما يتجاوز المائة ضحية؛ عندما تم استهداف كنيسة "سيدة النجاة" للسريان الكاثوليك في 2010م..

وفي 2011م قام النرويجي "أندرس بهرج بريفيك" بتفجير سيارة في قلب أوسلو، وإطلاق النار الجماعي في "جزيرة أوتايا" مما أسفر عن مقتل خمسة وخمسين ضحية وإصابة 151 آخرين.. ولقد أصدر أندرس بيانًا من ألف وخمسمائة صفحة يذكر فيها أنه صليبي مسيحي، وأن المهاجرين يدمرون القيم المسيحية التقليدية للنرويج!!..

وفي عام 2015م حدثت هجمات باريس الإرهابية التي راح ضحيتها مائتا قتيل، وفي العام التالي 2016م حدث هجوم نيس الذي أسفَر عن قتل أربعة وثمانين شخصًا.. أما في مصر فمنذ سقوط حُكم الإخوان في الثالث من يوليو 2013م، بدأت موجة هائلة من العمليات الإرهابية لا يكفي المقال كله لذكرها، ولكن أبشعها على الإطلاق والذي يُعَدّ دليلًا على أن الإرهاب لا دين ولا وطن له، هو حادثة الرابع والعشرين من نوفمبر 2017م؛ عندما استهدفت الجماعات الإرهابية "مسجد الروضة" في القرية التي تحمل نفس الاسم والتي تبعد عن العريش مسافة خمسين كيلو مترًا، وتبعد عن بئر العبد قرابة أربعين كيلو مترًا بمحافظة شمال سيناء؛ حيث قامت مجموعة إرهابية متطرِّفة تبايع تنظيم داعش، بإطلاق النار داخل المسجد في صلاة الجمعة على نحوٍ عشوائي، مما أسفر عن سقوط ثلاثمائة وخمسة قتيل، ومائة وثمانية وعشرين مصابًا؛ مما جعله يعتبر من أبشع العمليات الإرهابية التي عرفها التاريخ..

ولأن بعض الدول التي ترعى الإرهاب سرًا على عكس ما تبدي علنًا، تريده أن يستمر ويتواصل فقد خلطت بين التمرُّد والإرهاب إذ وصفت الإرهابيين بأنهم مجموعة من الناس تعجز عن إحداث تغيير بالوسائل السِّلمية المشروعة سواء اقتصادية أو احتجاجية أو اعتراضية أو عن المطالبة والمناشدة بإحداث التغيير، فلا تجد أمامها سوى الإرهاب وسيلة لإيصال رأيها وإسماع صوتها.. وتلك الدول بهذا تمنح الإرهاب شرعية زائفة، متجاهلة فكرة أنه ليس من المنطقي أن أختلف مع نظام حكم فأسعى لقتل المحكومين.. ولقد قال المفكِّر الراحل فرج فودة عن الإرهاب: "إن انطلاق الكلاشينكوف دليل على عجز الحروف وصوت الطلقات تعبير عن عجز الكلمات" وقال أيضًا: "توجد ثلاث سُبل لمواجهة الإرهاب وهي التعليم ومواجهة المشكلة الاقتصادية

والوحدة الوطنية.. وما زالت أقواله هذه مناسِبةً حتى يومنا هذا.. لمن يفقهون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (٨)
# خلف القضبان

عبر التاريخ الحديث كله، وفي كل ثوراته المعروفة في كل بلدان العالم، كان الهدف الأوَّل للثوَّار دومًا هو السجون.. فالسجون بالنسبة لهم كانت رمزًا لقهر الحرية التي ثاروا من أجلها، ولم تكن في أذهانهم في حالة الاندفاع الانفعالي التي تصاحب الثورات، القدرة على التفرقة بين مسجون يُعاقَب خلف القضبان لجريمة ارتكبها أو ذنب اقترفه، وآخر وُضِعَ خلف القضبان لرأيٍ عارضه أو فِكرٍ قاومه.. المهم أنها سجون وقضبان تبدو لهم أشبه بقضبان الخوف التي تحيط بنفوسهم والتي دفعتهم من شدتها للثورة على أحوالهم، وعلى النظم التي تحكمهم..

وربما أشهر مثال تاريخي لهذا هو ما حدث لسجن الباستيل إبان الثورة الفرنسية ر(1789م-1799م).. وسجن الباستيل هذا أنشئ في فرنسا بين عامي 1370مو 1383م كحصن دفاعي في البداية يحمي باريس ويدافع عنها، ثم لم يلبث أن تحوَّل إلى سجنٍ للمعارضين السياسيين والمسجونين الدينيين والمحرضين ضد الدولة، وعلى مدار السنين صارَ رمزًا للطغيان والظلم والجبروت، وبسببه انطلقت الشرارة الأولى للثورة الفرنسية في 4 يوليو 1789م؛ حيث تم اقتحامه من قِبَل الثوار والاستيلاء عليه وإطلاق سراح كل السجناء منه.. وما زالت فرنسا تحتفل بهذا اليوم حتى الآن باعتباره اليوم الوطني لفرنسا.. ولو أردْنَا العودة إلى مرحلة ما قبل السجون كانت العقوبات في مجملها بدنية تعتمد على الضرب أو الجلد أو النفي أحيانًا خارج البلاد، ثم فجأة، ودون معرفة كيف نشأ نظام لسجون ولا ريب في أن هذا قد حدث منذ زمن طويل جدًّا؛ لأن القرآن الكريم يتحدَّث في آياته عن سجن سيدنا يوسف في مصر الفرعونية، مما يعني أن نظام السجون قد نشأ قبل هذا بكثير واستخدم في أزمنة غابرة كعقاب بديل للعقاب البدني أو النفي، وربما كوسيلة لعزل المجرم أو المخطئ عن المجتمع لفترة يراجع خلالها نفسه أو يعيد تقييم أفعاله وينال عقابه في الوقت ذاته أيضًا، والسجون وردت في التوراة والعهد القديم أيضًا على أنها كانت موجودة في القدس منذ عصر النبي موسى، وقبل ذلك بكثير أيضًا..

ومصطلح السجن يُطلَق على أي مكانٍ يتم فيه سَلْبُ حرية المرء وهو مُعَدٌّ (أو يفترض هذا) ليصبح صالحًا لاحتجاز شخص أو أكثر ويحاط عادة بقضبان أو أسوار عالية وتُعيَّن عليه حراسة؛ لمنع المسجون أو المسجونين من الفرار ومن هذا المصطلح يمكن أن يسجن المرء في مكان كبير أو حجرة صغيرة أو حتى منزله لو توافرت تلك الشروط حوله، فاللواء أركان حرب محمد نجيب

أول رئيس جمهورية لمصر (18 يونيو 1953- 14 نوفمبر 1954م) عندما تم تحديد إقامته في قصر زينب الوكيل في المرج مع حراسة تحيط به؛ لمنعه من مغادرة المكان كان يعد مسجونًا تحت بند (الإقامة الجبرية)، وهناك حالات تم خلالها سجن البعض في منازلهم المحاطة بحراسة تحت مسمى (تحديد الإقامة) وكلها صور مختلفة للسجن الذي يحتجز حرية الفرد.. وفي العصور الحديثة في بعض الدول المتطوِّرة تكنولوجيًّا، تمت تجربة نوع آخر من السجون الذاتية وهي سجون بلا أسوار، ولكن كل مسجون فيها يحيط بكاحله سوار كهربي خاص يرتبط بحاجز إشارة لا بُدَّ وأن يستقبل إشارة من الأساور طوال الوقت في نطاق محدود؛ فلو خرج المسجون عن هذا النطاق يُطلِق السوار في ساقة شحنةً كهربيةً قوية تُفقِده الوعي وتستدعي رجال الحراسة لإعادته للداخل..

وهذا الأسلوب نفسه يستخدم مع من يرتكبون مخالفات محدودة من المراهقين والناضجين؛ حيث تُوضَع تلك الأساور حول كواحلهم مرتبطة بجهاز داخل منازلهم لا يحق لهم حتى لمسه، فإذا مات ابتعدوا عن المنزل لمسافة يتم تحديدها تُرسِل تلك الأساور إشارة للشرطة التي تهرع فورًا إلى المكان، ولو تجاوز الشخص النطاق المفروض عليه، عدة مرات، يتم استبدال عقوبة الحبس المنزلي تلك بالسجن العام، وهذا ما يجعل الكل حريصًا على عدم تجاوُز النطاق المفروض.. وتاريخ السجون يقودنا إلى الألفية الأولى قبل الميلاد في مصر وبلاد الرافدين، حيث كانت الزنازين عبارة عن فجوات تحت سطح الأرض يوضع فيها الشخص دون أي وسائل إعاشة وتُغطَّى بغطاء ثقيل من شبكة حديدية يلقى إليه الطعام والشراب عبرها، ثم غيرت اليونان الوضع قليلًا، فتحوَّلت تلك الزنازين تحت الأرضية إلى أقفاص خشبية يُوضَع فيها المساجين مقيدين بأصفاد ذات سلاسل محدودة حول المعصمين والكاحلين، وكانت أول مرة يسمح فيها للأقارب والأصدقاء بزيارة ذويهم المسجونين، ثم عادت الإمبراطورية الرومانية للزنازين تحت الأرضية على نحو أكثر قسوة؛ فقد كانت ضيقة بينها ممرات وطرق وتسبب الرهاب والاختناق، وكان السجناء يُقيَّدون بالسلاسل لمدد غير محدودة قد تصل إلى مدى الحياة، ولأن نظام العبودية كان موجودًا آنذاك فقد كان الخروج من السجن يستلزم من المسجون أن يصبح عبدًا مصارعًا يقاتل ويموت في الحلَبَة، وفي أوروبا ظلت أحوال السجون قاسية حتى بداية الملكية الإنجليزية حيث بدأ تطبيق نظام أكثر عدلًا في عام 1166م على يد هنري الثاني ملك إنجلترا الذي شيَّد أول سجن تدخله الإصلاحات القانونية ووضع في الوقت ذاته أوَّل مسوَّدة لما عُرفَ بعدها بنظام المحلفين...

وفي عام 1215م وقَّع جون ملك إنجلترا أحد أهم التشريعات التاريخية المعروفة باسم الماجنا كارتا والتي أجبر في الواقع على توقيعها بضغطٍ من

النبلاء والشعب... وفي القرن الخامس عشر بدأ اضمحلال الإقطاعية والتوسُّع في إنشاء المدن، وفي تلك الحقبة حدثت اضطرابات اقتصادية واجتماعية، وصار الكثيرون بلا مأوى، وزادت السرقات، وانتشرت الدعارة، ووجدت الدول نفسها أمام معضلة كبيرة، مما تسبَّب في إنشاء بيوت عمل يوضع فيها السُرَّاق ونساء الهوى والمشردون، حيث تكون لهم حجرات وليس زنازين، ولكنهم يجبرون على صناعة منتجات متنوعة كعمل لإعادة تأهيل تلك الفئات، ولكن باقي دول أوروبا لم تقنع بالفكرة أو تعمل على تنفيذها... وفيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ومع تقدُّم الصناعة، تزايَد عدد المساجين على نحوٍ درامي فنشأت فكرة نفي المساجين إلى مناطق بعيدة، وتم بالفعل إرسال الكثير من المساجين إلى معسكرات عقابية في أدغال أمريكا وأستراليا للعمل بلا أجر؛ أي أنه كان نظامًا أشبه بالعبودية، مما جعل الكثير من المسجونين يلقون حتفهم من شدة الإرهاق وسوء التغذية والإهمال الطبي.. أو حتى محاولات الهرب..

ولقد ظلت فرنسا تستخدم هذا الأسلوب حتى بدايات القرن العشرين، في حين ظلت روسيا ترسل المساجين إلى شمال شرق سيبريا المتجمِّد حتى منتصف القرن العشرين.. ثم كان لإنجلترا أيضًا السبق في وضع السجون الحديثة حيث قاتل الفيلسوف الإنجليزي جيرمي بنثام (1748- 1832م) لكي يتم إرسال المدانين إلى السجن باعتباره عقابًا لأنه كان ضد عقوبة الإعدام، ومن أجل هذا رسم بنثام مخططات لمنشآت يمكن احتجاز المساجين داخلها لفترة محدودة من الزمن، وكانت تصاميمه تعتمد على عدم قدرة المساجين على رؤية الحُراس، وكان الغرض من هذا إطلاق خيالات المسجون عن حراسة مخيفة في خياله توفيرًا للنفقات، ولكن تلك التصميمات لم ترَ النور؛ لصعوبة تنفيذها ولكنها، وضعت بذرة الفكرة في الأذهان، ودفعت الأمريكي بنجامين راش إلى الدعوة لاحتجاز المجرمين وإعادة تأهيلهم وهكذا تم بناء أول سجن حقيقي في أمريكا وهو (wallnut street) وعُرفَ باسم الإصلاحية، ومع ازدياد أعداد المساجين، بدأت فكرة بناء سجون كبيرة مثل السجن الشرقي في فيلادلفيا الذي اعتمد فكرة عزل المساجين عن بعضهم البعض؛ لمنعهم من تكوين عصابات أو تنظيمات أو التخطيط لعملية هروب جماعية، ولأن تكلفة السجون الكبيرة كانت عالية، بدأت فكرة أن يتضمن العقاب تشغيل المساجين للقيام بأعمال النظافة والصيانة والغسيل في السجن، ثم ابتكروا أسلوبًا سمي (أسلوب الصمت) ويعتمد على أن يلتزم المساجين الصمتَ التَّام وهم يعملون طوال النهار، ثم يقضون الليل في زنازين انفرادية، ولكن هذا الأسلوب أصاب مساجين كُثر بالانهيار النفسي والعصبي، ودفع عددًا غير قليل منهم للانتحار والتخلص من حياته، ولقد كان أشهر سجن طبَّق هذا النظام بقسوة بالغة هو سجن "سنج سنج" الذي شهد أشهر حالة إعدام

في العصر الحديث عام 1953م وهي إعدام الزوجين جوليوس وإيثيل روزنبرج بتهمة التخابر وتسريب سِرّ القنبلة الذرية للسوفيت.. ومع إنشاء منظمات حقوق الإنسان بدأ تغيير نظام السجون، بحيث يصبح أكثر آدمية؛ فلم يعد المسجونون يقيَّدون بالسلاسل طوال الوقت وسُمحَ لهم باستخدام بعض وسائل الترفيه في زنازينهم، وصار من حقهم تناوُل وجبات ساخنة مشبعة يوميًّا تحوي اللحم ثلاث مرات أسبوعيًّا.. قارن هذا بما كان عليه سجن الكاتراز الذي بني ما بين عامي (1920-1930م) بخليج سان فرانسيسكو والذي كان شديد الحراسة، شديد القسوة والذي نُسِجَت حوله عدة أساطير وألهم الكثير من صناع السينما قبل أن يتم إغلاقه وتحويله إلى مزار سياحي عام 1963م بسبب تكاليف حراسته الباهظة..

ولكن وعلى الرغم من تطوُّر السجون وتحسين الأحوال المعيشية فيها، ورفع المستويات التعايشية داخلها ما زال بعض علماء الاجتماع يرفضون وجودها لعددٍ من الأسباب التي لخصوها في الآتي: إصابة المسجون بالملل، وعدم القدرة على ممارسة أي أنشطة منتجة ومخاطر النشأة مجتمع شمولي يخدم مصالحه فقط ويلجأ إلى نظام السجون لإخراس معارضيه ومنتقديه، ومخاطر الاستعباد الداخلي فهو داخل السجن سيكون أشبه بعبدٍ سجين قد يجبر على ما يرفضه في الحرية والأهم تهميش السجين وإضعافه بعيدًا عن المجتمع وتهشيشه، بحيث يصبح أضعف من مقاومة مخاطر الاغتصاب والاعتداء الجنسي داخل السجن!!.. ومع كل الاحترام لرأي الاتجاه الإصلاحي الاجتماعي فهو لم يطرح بديلًا عقابيًّا بخلاف السجن، ولم يقترح حتى وسيلة مختلفة؛ لهذا ولذلك، وحتى ابتكار وسيلة مختلفة يبقى العقاب الوحيد المتاح لكل من يرتكب جُرمًا هو السجن.. خلف القضبان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (٩)

# والعقول تتصارع

منذ القرن السادس قبل الميلاد، وعندما احتدم الصراع واشتعل في قلب آسيا للفوز بأكبر مساحة من الأرض يمكن السيطرة عليها، أدرك "صن تزو"، ذلك المقاتل الصيني العبقري الذي وضع أُسس أوَّل جيش نظامي في التاريخ، أن الانتصار في الحروب لا يتم عبر المقاتلين والأسلحة فحسب، ولكن العقول لها النصيب الأكبر في إحراز النصر مهما كان نوع أو زمن أو مكان الحرب..

وعلى الرغم من أنه كان يقود عددًا قليلًا من الجنود المقاتلين بمقياس ذلك الزمن، إلا أنه نجح في إخضاعهم لقواعد جديدة لم تُعرَف من قبل خلال أي حروب سابقة، حتى إنه استطاع بقيادة هذا العدد الذي لم يزد عن ثلاثين ألف جندي، من الانتصار على جيوش يزيد عددها عنه بعشرة أضعاف، وكرَّر هذا الانتصار مرة ومرة ومرات، حتى صنع إمبراطورية هائلة قدمها لإمبراطوره على طبقٍ من ذهب.. وفي كل انتصاراته اعتمد "صن تزو" على العقل في اتجاهين أساسيين..

الاتجاه الأوَّل في استراتيجيات الحرب وتكنيكاتها حيث درس طبيعة أرض المعركة في كل موقعة، واستخدم الطبيعة وسماتها وجعلها جزءًا من أسلحته، وابتكر تكنيكات جديدة للكر والفر، وخططًا مبتكرة لحصار العدو وتحييد أسلحته الأساسية.. أما الاتجاه الثاني فكان البداية المنظَّمة الأولى لأقوى حروب عقلٍ عرفها التاريخ.. حروب المخابرات.. لقد استخدم "صن تزو" الجواسيس؛ لمعرفة قوة واستعدادات العدو ومدى أسلحته، ولم يكتفِ بهذا فحسب وإنما سعى لمعرفة الحالة المعنوية لشعب العدو وقومه ومدى تقبُّلهم أو رفضهم للحرب، ودس وسطهم من يحدِّثهم عن قوته هو ويبالغ كثيرًا في قدراته؛ لتحطيم معنوياتهم وبسّ الخوف في عروقهم بحيث ترتجف أياديهم وهم يواجهونه وينهزمون في أعماقهم قبل حتى المواجهة العسكرية الفعلية.. ولقد صنَّف صن تزو الجواسيس على نحوٍ لم يعرفه أو يدركه أحدٌ من قبله وجعلهم بين جاسوس من رجاله يندس وسط جنود أو قوم العدو أو جاسوس من العدو ينقل إليه أخبارهم مقابل أجر أو إغراء، وجعل من بين رجاله المخلصين والمقرَّبين عيونًا ترصد ما يحدث وسَط قومه لكشف أي محاولات للاندساس بينهم أو نشر الأكاذيب وسطهم..

باختصار لقد وضع "صن تزو" -وربما دون أن يدرك تمامًا- القواعد الأساسية لما عُرِفَ فيما بعد بأجهزة الاستخبارات.. فالجاسوسية في حدِّ ذاتها ليست بالأمر الحديث أو الجديد بل إنها تعتبر ثاني أقدم مهنة في التاريخ، ولكنَّ

وضْعَها في قالب منظّم وتصنيف عملها، كان عبقرية "صن تزو" التي وضعها في كتابه الأشهر (فن الحرب) تحت عنوان الحرب السرية.. ومنذ زمن "صن تزو"، راحت الجاسوسية تتطوَّر على نحو بطيء يخضع لقواعد التجربة والخطأ بحيث تنمو المعارف رويدًا رويدًا، دون أن تكون هناك أجهزة متخصصة في هذا المضمار.. ومع مطلع العصور الحديثة وتطوُّر الأسلحة وتكنيكات الحروب ظهرت الحاجة إلى وجود كيانات منظمة ترعى عمليات جمع المعلومات، ومنع الحصول على الأسرار من هنا نشأت أولًا ما تُسمَّى بالمكاتب المعلوماتية الاستراتيجية التي تخضع لقادة الجيوش وتسعى لمعرفة قوة أسلحة العدو ومدى تسليح جيشه وتدريب جنوده تحت مسمى الاستخبارات العسكرية التي حقَّقت الكثير من النجاحات حتى تبيَّن وجود قصور معلوماتي يعود إلى أن بعض المعلومات المدنية غير العسكرية يمكنها التأثير كثيرًا في مسار الحروب..

ومن هنا بدأ التفكير في وجود كيانات أكثر شمولية تتولى العملين.. جمع كل المعلومات الممكنة طوال الوقت من الجانبين العسكري والمدني، ومنع جواسيس العدو في الوقت ذاته من الحصول على أي معلومات عسكرية أو مدنية يمكنها أن تعرِّض أمن وسلامة الوطن للخطر..

ومع بدايات القرن العشرين راحت تلك الكيانات تتطوَّر وتنمو حتى العقد لثاني من القرن العشرين عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى (28 يوليو 1914- 11 نوفمبر 1918م) حيث احتدم الصراع بين دُوَل الحلفاء فرنسا وبريطانيا وأستراليا وكندا والهند البريطانية ومستعمرات نيوفاوند لاند ونيوزيلندا واتحاد جنوب أفريقيا، وغيرهم، ودول المحور وعلى رأسها الإمبراطورية الألمانية والدولة العثمانية، وبافاريا وبروسيا والنمسا وآخرون.. ولأن الحرب كانت شاملة وعنيفة للغاية، ولأن الحاجة دومًا أم الاختراع فقد تطوَّرت الكيانات الاستخباراتية تطوُّرًا كبيرًا خلال تلك الحرب، وكانت لها مساهمة كبيرة في حسمها وخاصة عندما سعت أجهزة الاستخبارات المعادية على تغذية جذوة الثورة في روسيا الإمبراطورية كوسيلة لدفعها إلى الخروج من الحرب والانسحاب من المعركة، ولقد قامت المخابرات الألمانية بعملية ناجحة عُرِفَت باسم (القطار الحديدي)؛ لنقل "لينين" من منفاه في ألمانيا، لروسيا الإمبراطورية؛ ليقود الثورة التي انتهت بسقوط حكم عائلة رومانوف، واعتلاء البلاشفة سدة الحكم في روسيا التي قرَّرت تحت حكم البلاشفة، الانسحاب من الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من نجاح العملية، خسرت الإمبراطورية الألمانية، الحربَ، وانهار معها الحكم العثماني، وصارت إنجلترا وفرنسا هما القوتان العظمتان اللتان تحكمان العالم..

وعبر الدروس المستفادة من الحرب العالمية الأولى تطوَّرت أجهزة الاستخبارات الإنجليزية والروسية حيث لم تكن هناك مخابرات أمريكية أو فرنسية ذات قيمة في ذلك الحين.. وبعد صعود أدولف هتلر زعيم الحزب النازي الألماني (20 أبريل 1889- 2-30 أبريل 1945م) إلى منصب مستشار ألمانيا؛ أي ما يعادل رئيس الوزراء رسميًا في (2 أغسطس 1934م) بدأ في تكوين نُظُم أمن قوية؛ لحماية وجوده، وضمان بقاء الحزب النازي في السُّلطة، وعلى رأسها المخابرات النازية التي تم تدريبها وإعدادها بقوة ودِقَّة حتى صارت خصمًا لا يُستهَان به لجهازي المخابرات الروسي والبريطاني.. ومع أول شرارة للحرب العالمية الثانية (1 سبتمبر 1939- 2 سبتمبر 1945م) نشطت أجهزة المخابرات الثلاثة تحسُّبًا لما يمكن أن يحدث، وسعَتْ كلٌّ منها للحصول على أكبر قدرٍ من المعلومات عن كل القوى، في نفس الوقت الذي راحت فيه اليابان تطوِّر جهاز مخابراتها استعدادًا لخوض الحرب إلى جوار ألمانيا النازية.. ويمكن اعتبار فترة الحرب العالمية الثانية هي نقطة انطلاق حرب العقول إلى ذروتها، والانطلاق إلى آفاق جديدة غيَّرت تاريخ وشكل الاستخبارات في العالم كله، وأرست قواعدَ جديدة لم تحظَ بالأهمية الكبيرة فيما قبل..

من أهم تلك القواعد إدراك ما يمكن أن تفعله المعلومات العلنية المتاحة للكل بلا استثناء، في مسار الحروب، لو أمكن جمعها وتصنيفها وتحليلها بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب.. ولقد بدأ هذا قبل بدء الحرب العالمية الثانية فعليًّا؛ عندما كان أدولف هتلر يسعى لتكوين جيشه سرًّا ملتفًا على اتفاقية فرساي التي تمنع بنودُها ألمانيا من تكوين جيش مقاتل؛ فبينما يدور كل شيء على نحو سريٍّ فوجئ أدولف هتلر بكتاب نشره صحفي سويسري يدعى برتولد جاكوب يشرح فيه كل ما يتعلَّق بالجيش الألماني من حيث توزيع وَحدَاتِه، وأسماء قادتها، وأماكن تمركزها. وبعد تحقيق داخلي عصبي، أمرَ هتلر بإحضار "جاكوب" إلى برلين..

وهناك، في مقر المخابرات الألمانية تكشَّفَت الحقيقة المذهلة؛ فالصحفي السويسري جمع كلَّ ما لديه من معلومات من الصحف الألمانية وبالتحديد من صفحات الوفيات حيث كان النعي يحمل نصًا معلوماتيًا دون قصدٍ مثل أن القائد فلان رئيس الوحدة كذا المتمركزة في مكان (...) ينعي زوجتة الجنرال علان أو رئيس الوحدة كذا والمتمركزة في مكانٍ يذكره النعي في وضوح.. وكان أكثر مَن أدهشهم الأمر هُم رجال الاستخبارات النازية أنفسهم، عندما أدركوا خطورة المعلومات العلنية وأثرها في مسار الحروب؛ فلو كشف كتاب جاكوب هذا الأمر للجانبين البريطاني والفرنسي لربما لم تنشأ أو تندلع الحرب العالمية الثانية من الأساس.. المخابرات الألمانية لم تكتفِ بمعرفة

ذلك فحسب، ولكنها سعت لاستغلاله أيضًا، ووضعت قاعدة جديدة في حرب الجاسوسية والمخابرات..

وبالنسبة لأي دارس، تُعَدّ الحرب العالمية الثانية مدرسة كبرى لفن علوم الجاسوسية بعد العمليات العبقرية المبتكرة والنتائج المذهلة التي حقَّقَتها.. فخلال الحرب العالمية الثانية تمَّ عددٌ من العمليات الاستخباراتية المدهشة وغير التقليدية منها مثلًا عملية عُرِفَت باسم (عملية اللحم المفري)؛ حيث تمت الاستعانة بجثة أحد الضباط من قِبَل المخابرات البريطانية لخداع المخابرات النازية؛ فقد كان الألمان يتساءلون: هل سيسعى البريطانيون لغزو اليونان أم صقلية، ولذلك وضع رجلا المخابرات البريطانيان "تشارليز كولونديلي" و"أوين مونتاجو"، فكرةً غريبةً ومبتكرةً، استقياها من عبارة عفوية وردَتْ على لسان "آيان فليمنج" سكرتير الاستخبارات الشهير والذي صار فيما بعد صاحب أشهر شخصية جاسوسية روائية في التاريخ وهي "جيمس بوند"؛ فقد كان بعض رجال الاستخبارات يتحدثون عن ضمان ولاء الجاسوس، فقال فليمنج مازحًا أن الضمان الوحيد هو أن يكون الجاسوس ميتًا وهنا نمت الفكرة واستعان "تشارليز" و "مونتاجو" بجثة الشاب جليندور مايكل بعد استئذان والديه وألبساه زِيًّا عسكريًّا ووضعا في جيبه كلَّ ما يوحي بشخصية عادية جدًّا مثل خطابات غرامية وتذاكر سينما، وبعض الفستق، وصورة لخطيبة وهمية، وفي يد الجثة وُضِعَت أغلال تربط معصمه بحقيبة تحوي بعض الأوراق التي تصف خطة غزو اليونان.. ولقد ألقيت الجثة بجوار الشواطئ الإسبانية لتجرفها التيارات إلى هناك.. ولقد التقطها الإسبان بالفعل، وعندما رأوا ملابسها العسكرية البريطانية أبلغوا الألمان الذين أرسلوا خبراءهم لفحص الأمر، وتصوَّروا أن القدَرَ قد أوقع في أيديهم خطة غزو اليونان..

ومن هنا فقد أعدّوا العدة واستحكموا دفاعاتهم في اليونان، وعندما أيقنوا من براعتهم، وبعد ثلاثة شهور فحسب، غزت قوات الحلفاء صقلية، وكانت بداية السقوط لبنيتو موسوليني (24 ديسمبر 1925- 25 يوليو 1943م).. العملية مجرَّد مثال لعمليات الاستخبارات المبتكرة والجديدة.. وتلك العملية وغيرها هي التي غيرت مسارات الحرب عدة مرات أسالت لعاب الدول الأخرى على ضرورة أن تكون لديها أجهزة مخابرات، وخاصة بعد أن تسبَّب جاسوس سوفيتي واحد من أصل ألماني وهو "ريتشارد سورج" أو "ريتشارد زورجه" كما تقال بالألمانية (7 أكتوبر 1895- 7 نوفمبر 1944م) في وضع بداية هزيمة الجيش النازي في روسيا، عندما أنشأ شبكة تجسسية قوية في قلب اليابان مستغلًا عمله كمراسل صحفي لجريدة نازية شهيرة، واستطاع الاقتراب من القيادة العسكرية اليابانية ومعرفة قرارهم بعدم شن الحرب على روسيا بأي حال من الأحوال، وبناءً على هذه المعلومة الاستخباراتية شديدة الأهمية والخطورة، سحب الروس كافة قواتهم من الجبهة اليابانية إلى الجبهة

الألمانية؛ لتوجيه ضربة قاصمة للجيش النازي أدت إلى دحره وبداية زحفه عبر الثلوج، مطارَدًا من القوات الروسية التي تبعته وطاردته حتى برلين نفسها..

وحتى انتهت الحرب العالمية الثانية لم يكن لأمريكا جهاز استخبارات، بل فقط مكتب معلومات عسكرية استراتيجية، ولكن أمريكا استعانت ببعض الخبراء البريطانيين وبمن أسرَتْهم من رجال الاستخبارات النازية؛ لإنشاء وتطوير جهاز مخابراتها الذي يحظى اليوم بشهرة دعائية كبيرة كواحد من أقوى أجهزة المخابرات العالمية، وبعد احتلال اليهود لفلسطين أدركوا أهمية أن يكون لهم جهاز استخبارات، وبخلاف استخباراتهم العسكرية (أمان) التي تتبع وزارة الدفاع الإسرائيلية وجهاز الشين بيت الذي يتبع وزارة الداخلية فأنشأوا عام 1950م الاستخبارات المدنية أو (الموساد) والكلمة تعني المؤسسة باللغة العبرية، ولقد استعانوا في إنشائها برجال المخابرات الأمريكية الذين قاموا بتدريبهم وتأهيلهم.. وبعد قيام ثورة 23 يوليو 1952م في مصر، ظهرت الحاجة لوجود جهاز استخبارات عام؛ فأسَّس جمال عبد الناصر جهاز المخابرات العامة عام 1954م، وصدر قرار إنشائه رسميًّا في 1955م وتولى رئاسته عضو مجلس قيادة الثورة "زكريا محي الدين" لتدخل مصر حلبة أقوى صراع عرفه التاريخ وساحة الحرب التي لا تتوقف أبدًا ولو لثانية واحدة.. حرب العقول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (١٠)

# من الهجان إلى الجيل الرابع

“رأفت الهجان”.. الاسم الدرامي لرفعت علي سليمان الهجان (1 يوليو 1927م- 30 يناير 1982م) في أشهر وأنجح مسلسلات الجاسوسية في تاريخ التليفزيون العربي والمأخوذة عن عملية حقيقية من ملفات المخابرات العامة المصرية حيث تم زرعه في قلب (إسرائيل) كمهاجر يهودي يحمل اسم (جاك بيتون) وبسبب شخصيته الجذَّابة أمكنه عقد صداقات قوية، وإقامة علاقات مصالح عديدة تجارية وعملية على نطاق واسع في (تل أبيب) عبر شركة سياحية جعلته شخصية بارزة في المجتمع الإسرائيلي.. ولقد وُلِدَ “رفعت علي سليمان الجمال” في مدينة دمياط في أول يوليو 1927م، وكان والده يعمل في تجارة الفحم، أما والدته فهي ربة منزل تنحدر من عائلة مرموقة تجيد الإنجليزية والفرنسية.. ورفعت له شقيقان هما لبيب ونزيهة وأخ غير شقيق سامي، وعند وفاة والده عام 1936م صار سامي الأخ غير الشقيق هو المسؤول الوحيد عن الأسرة، وكان وضعه كمدرِّس للغة الإنجليزية لشقيق الملكة فريدة يمنحه مكانة رفيعة في المجتمع..

والواقع أن رفعت لم يكن من الممكن أن يوصف أبدًا بالشخصية المسؤولة؛ فقد كان طالبًا مستهترًا غيرَ مبالٍ بدراسته، على الرغم من محاولات سامي، إذ كان رفعت على النقيض تمامًا من سامي يهوى اللهو والمسرح والسينما، حتى إنه استطاع الوصول للممثِّل الكبير “بشارة واكيم” الذي وجدَ فيه موهبة أهَّلَتْه ليمثِّل معه بالفعل في ثلاثة أفلام.. ولما كان التمثيل في تلك الفترة لا يُنظَر إليه باعتباره مهنة محترمة؛ فقد أجبره إخوته على الالتحاق بمدرسة التجارة المتوسطة، وعلى الرغم من اعتراضه وعدم قبوله للفكرة تفتحت عينا رفعت على البريطانيين وراقَ له كفاحهم؛ لمقاومة الزحف النازي في تلك المرحلة، ولم يدفعه هذا لتعلُّم الإنجليزية فحسب بل أجاد التحدُّث بها بلكنة البريطانيين، كما علمته أمه أن يتحدَّث الفرنسية بلكنة أهل باريس..

وفي عام 1946م تخرَّج رفعت وتقدَّم بطلب عمل في شركة بترول أجنبية تعمل في البحر الأحمر كمحاسب، وتم قبوله على الرغم من كثرة عدد المتقدمين؛ ربما لإجادته الإنجليزية والفرنسية، ولكن سرعان ما تم فصله من الشركة بتهمة الاختلاس!!.. بعدها انتقل رفعت من عملٍ إلى عملٍ حتى استقر بعض الوقت كمساعد ضابط حسابات على السفينة “حورس” وهي سفينة شحن سافر على متنها لأوَّل مرة في حياته ليطوف بين موانئ: نابولي، جنوة، مارسيليا، برشلونة، جبل طارق، وطنجة؛ لترسو به السفينة في النهاية في ميناء ليفربول الإنجليزي لبعض أعمال الصيانة والإصلاح..

وهناك حصل رفعت على فرصة عمل مغرية في شركة سلتيك تورز للسياحة، وسرعان ما غادرها إلى أمريكا التي تسلَّل إليها دون تأشيرة؛ مما جعله هدفًا لمطاردة مستمرة من إدارة الهجرة هناك، فغادرها فرارًا إلى كندا ثم إلى ألمانيا، وهناك أعلن فقد جواز سفره، ولكن هذا لم يقنع القنصل المصري الذي رفض إعطاءه وثيقة سفر واتهمه ببيع جوازه -وكان هذا شائعًا في تلك الفترة-، فألقت الشرطة الألمانية القبض عليه، وقامت بترحيله إلى مصر التي عاد إليها بدون عملٍ أو جواز سفر، وسبقته إلى مصر وثيقة من القنصل تحمل شكوكه في أن رفعت قد باع جواز سفره، وهكذا وجدَ رفعت نفسه في مأزق وخاصة عندما لاحت له فُرصة عمل في شركة قناة السويس، ولكنها تتطلَّب وثائق وأوراق هوية..

من هنا بدأت رحلة رفعت إلى العالم السفلي فتعرَّف إلى مزوِّر بارع منحه جواز سفر باسم "علي مصطفى" وهو الاسم الذي عمل به في شركة قناة السويس، ولكن مع قيام ثورة يوليو 1952م، شعر البريطانيون بالقلق مع تعاطف المصريين مع الثورة فقرَّروا مراجعة أوراق ووثائق كل المصريين؛ مما جعله يستشعر الخطر فترك العمل في الشركة ولجأ إلى نفس المزوِّر الذي منحه جواز سفر جديد باسم السويسري "تشارلز ديفون"، واعتاد رفعت اللعبة أو أن طبيعته المغامِرة قد استمتعت بها، وراح ينتقل من هوية مزوَّرة إلى أخرى، ومن جنسية زائفة إلى أخرى، حتى جاءت السقطة عندما حاول السفر إلى ليبيا فقد استوقفه ضابط بريطاني وجد أن جواز سفره بريطاني باسم "دانيال كالدويل"، وشيكاته السياحية في الوقت ذاته باسم "رفعت الجمال"، كما كان يتحدَّث العربية بطلاقة يستحيل أن يجيدها أو يتحدَّث بها أي بريطاني؛ مما جعله يشك في أنه ضابط يهودي اسمه "ديفيد أرنسون"، كان البريطانيون يبحثون عنه منذ فترة، ولهذا فقد أعاده إلى مصر مقبوضًا عليه ليتولى ضابط البوليس السياسي المصري "حسن حسني" استجوابه.. في البداية حار حسن في هويته وأدهشته إجادته التامة لعدة لغات، ولكن مع الوقت فقدَ رفعت حذرَه وكسر كتمانه وراح يشرح للضابط كل ما مرَّ به في حياته، ولكن الضابط توقَّف طويلًا عند جزءٍ من حياة رفعت.. ذلك الجزء الذي تحدَّث فيه عن علاقته براقصة سينمائية شابة واندماجه من أجلها في الأوساط اليهودية ولعبه دور اليهودي إلى الحد الذي أقنعهم بأنه واحدٌ منهم.. كان هذا من أجل عيني "كيتي"، ولكن الضابط وجد في هذا خامة مدهشة ومصادفة خيالية لم يكن يمكن بأن يحلم بأفضل منها..

ولكي يتأكَّد من الأمر، راح الضابط يدس بعض المخبرين في زنزانة رفعت التي حرص على نقل معظم اليهود المقبوض عليهم إليها، وسرعان ما أكَّد له المخبرون أن اليهود لا يشكون مجرَّد شك في أن رفعت واحدٌ منهم، وهنا استدعاه الضابط حسن إليه وقدَّم إليه عرضًا غيَّر حياته للأبد.. لقد عرضَ عليه

أن يستبدل سنوات سجنه المنتظر بأن يلعب دور اليهودي؛ للاندماج وسط أوساط اليهود، ونَقْل كل أسرارهم إلى البوليس السياسي.. كان من الطبيعي أن يوافق رفعت على العرض، فرارًا من أي سجن مُحتمَل..

في ذلك الوقت كانت المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) تنفذ خطة لضرب المصالح البريطانية والأمريكية في مصر عن طريق تفجير بعض المنشآت الأمريكية والبريطانية في القاهرة والإسكندرية، ومن أجل تنفيذ هذا، تمت الاستعانة بعددٍ من شباب اليهود، من خلال وحدة أطلقوا عليها اسم الوحدة 131، تحت قيادة ضابط يهودي يدعى "إبراهام دار"، ويُعرَف كوديًّا باسم "جون دارلنج" الذي صار فيما بعد أحد أمهر ضباط الموساد.. ولقد انضم إلى تلك الوحدة كل من "رفعت الجمال" و"إيلي حوفي كوهين".. ولقد نفذت تلك المجموعة عدة تفجيرات في القاهرة والإسكندرية، قبل أن ينكشف أمر العملية بسبب اشتعال قنبلة قبل موعدها في جيب أحد المنفذين قبل دخوله إلى السينما.. فشَلُ العملية صار فضيحة كبرى نالت بنحاس لافون وزير دفاع إسرائيل حينذاكٍ، وفي خلال عمليات القبض والاعتقال تم إلقاء القبض على رفعت الجمال وإيلي كوهين واحتجزا معًا في زنزانة واحدة، ثم أُفرجَ عنهما فيما بعد عندما ثبت عدم تورُّطهما..

بسبب تلك العملية التي أُطلقَ عليها اسم "فضيحة لافون"، تم إنشاء جهاز المخابرات العامة في مصر بقرار من الرئيس جمال عبد الناصر في عام 1954م، وتولى "زكريا محيي الدين" مهمة إنشائه وهنا استعان زكريا بعدد من ضباط القوات المسلحة الذين رأى فيهم الكفاءة ورجاحة العقل، ومنهم كان "عبد المحسن فائق الخويسكي" الذي اختاره جمال عبد الناصر شخصيًّا كأحد مؤسسي الجهاز، والذي اشتهر في المسلسل الدرامي باسم "محسن ممتاز".. وعندما كان عبد المحسن يراجع ملفات البوليس السياسي؛ ليرى ما يمكن أن يفيده منها، فوجئ بعملية "رفعت الجمال" التي قرأ كل ما يتعلَّق بها وهو يشعر بالدهشة لأن عملية كهذه لم تتخذ المنحي المناسب لها، وهكذا انتقل رفعت من الضابط حسن حسني إلى عبد المحسن فائق، الذي انبهر به رفعت، وراح يتبع كل ما يطلبه منه أو يأمره به، وعبد المحسن يخضعه إلى تدريب مكثَّف عن كل سمات الشخصية اليهودية والديانة اليهودية وتاريخ اليهود وطرق تفكيرهم والتفرقة بين اليهود الشرقيين (السفرديم) واليهود الغربيين (الاشكيناز)، وكان يطالبه ليس بأن يتقمَّص أسلوب اليهودي فحسب، وإنما أن يفكِّر كاليهودي أيضًا، ثم وفي مرحلة تالية، نقله للعيش في الإسكندرية والعمل في شركة تأمين هناك تحت اسم "جاك بيتون" والاختلاط باليهود والجلوس في مجالسهم ومقاهيهم والتردُّد على المعبد اليهودي في شارع النبي دانيال حتى ألفوه واعتادوا وجوده، ولم يعد يساورهم شك في أنه واحد منهم..

وعقب حرب 1956م ومع موجة هجرة اليهود من مصر، رحل رفعت الجمال تحت اسم "جاك بيتون" إلى إسرائيل.. وتعتبر عمليات الزرع هذه من أعقد وأخطر العمليات بالنسبة لأي جهاز مخابرات؛ لما تتضمنه من إعداد طويل ودقيق وتفاصيل عديدة ويقظة دائمة، باعتبار أن لحظة غفلة واحدة قد تكشف أمر العميل عندما يحيا في مجتمع لا يمكن أن ينتمي إليه فعليًا، وتاريخ المخابرات العالمية يسطر العديد من عمليات الزرع وخصوصًا خلال مرحلة الحرب الباردة بين الأمريكيين والسوفيت..

حتى الإسرائيليون نجحوا في زرع واحد من ضباطهم وهو "إيلي حوفي كوهين" في قلب المجتمع السوري تحت اسم "كامل أمين ثابت" الذي تم زرعه وسط السوريين المهاجرين في أمريكا الجنوبية؛ حيث تظاهر بالوطنية الشديدة، وراح يدعم حزب البعث السوري على نحوٍ جعل المهاجرين يسألونه لماذا لا يعود إلى سوريا ما دام يعشقها إلى هذا الحد.. وبالفعل سافر إيلي إلى سوريا، وسرعان ما صار أحد البارزين في حزب البعث، وتصاعدت مكانته السياسية، وتزايد قربُه من القيادات السياسية، وراح يصعد السلم السياسي في سرعة حتى صار مرشحًا لمنصب نائب وزير الدفاع السوري!!!..

في تلك الفترة زار الفريق "علي عامر" الجبهة الشمالية والتقطت له صورة مع عددٍ من القادة السوريين وبصحبتهم مدني واحد.. وعندما رأى رفعت تلك الصورة في صحيفة إسرائيلية طلب لقاءً عاجلًا مع أحد ضباط المخابرات المصرية في قبرص، وأشار إلى صورة ذلك المدني الوحيد مؤكِّدًا أن الاسم المكتوب تحتها "كامل أمين ثابت" ليس صحيحًا، وأن الموجود في الصورة هو "إيلي حوفي كوهين" زميله السابق في الوحدة 131، وأنه ليس سوريًا بل إسرائيليًا.. كانت مفاجأة مذهلة جعلت المخابرات المصرية تراجع ملف إيلي إبان اعتقاله، ثم ترسل منه نسخة حملها "صلاح نصر" شخصيًا إلى الرئيس السوري الذي فاقت دهشته دهشة المصريين، بل وبلغت حد الذهول، خاصة وأنه كان على وشك توقيع قرار تعيين إيلي نائبًا لوزير الدفاع! وكانت ستصبح كارثة عسكرية على أعقد مستوى أن يكون نائب وزير الدفاع السوري جاسوسًا إسرائيليًا.. ولقد تم القبض على إيلي وصدرَ الحكم بإعدامه وبذل الإسرائيليون جهودًا مستحيلة؛ لمنع إعدام إيلي، وانتدبوا له محاميًا فرنسيًا شهيرًا، بل وعرضوا مليون دولار مقابل استبدال حكم الإعدام بالسجن المؤبد، ولكن القيادة السورية أصرَّت وقامت بإعدام (إيلي) بالفعل في 18 مايو 1956م..

أما رفعت الجمال فقد ظلَّ يواصل عمله لحساب مصر حتى آخر لحظة في حياته دون أن ينكشف أمره؛ مما منحه تميُّزًا بين كل حالات الزرع في العالم.. عملية رفعت الجمال تُعَدّ واحدة من أنجح العمليات المخابراتية في التاريخ

في فترة كانت الجاسوسية وسيلة مثلى؛ للحصول على المعلومات التي يخفيها العدو والوسيلة الأرخص لربح المعركة بأقل الخسائر الممكنة باعتبار أن المعلومات تجعل الوصول للهدف أسهل وأسرع.. كان هذا في زمن الحروب المباشرة أو حروب الجيل الأوَّل (G W 1) التقليدية بين جيشين متواجهين يقاتل كلاهما الآخر وجهًا لوجه..

أما حروب الجيل الثاني أو ما يطلقون عليه اسم (G W2) فهي حروب العصابات أو (Guerilla War) وهي تشبه حروب الجيل الأوَّل ولكنها تتم بين تنظيمات وليس بين دول.. وحروب الجيل الثالث (G W3) فهي الحروب الوقائية أو الاستباقية والتي طوَّرها الألمان في الحرب العالمية الثانية، وأطلقوا عليها اسم "حرب المناورات" وهي تعتمد على المرونة والسرعة وعنصر المفاجأة.. وفي عام 2004م في معهد الأمن القومي الإسرائيلي، أطلق البروفيسير الأمريكي "ماكس مايوراينيك" مصطلح حرب الجيل الرابع (G W 4) كتعريف بالحرب الجديدة، ولقد عرَّفها بأنها حرب بالإكراه تسعى لإفشال الدولة بزعزعة استقرارها، وتدمير اقتصادها، وفرض واقع جديد عليها يراعي المصالح الأمريكية.. ولقد وضع مايوراينيك عناصر محددة لحروب الجيل الرابع وهي الإرهاب وإيجاد قاعدة إرهابية غير وطنية أو متعدِّدة الجنسيات وشن حرب نفسية متطوِّرة للغاية من خلال الإعلام والتلاعب النفسي واستخدام كل وسائل الضغط المتاحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية واستخدام تكتيكات حروب العصابات والتمرُّد ومحاولة شق صف المجتمع عن طريق التفرقة الشديدة واسثارة الفئات التي ترى كونها مهمَّشة..

هذه هي العناصر التي وضعها "مايوراينيك" لحروب الجيل الرابع والتي جعلت مستشارة الأمن القومي السابقة "كونداليزا رايس" في حديث مسجَّل لها في الحادي عشر من أكتوبر 2005م، تتحدَّث عن مصطلح الفوضى الخلَّاقة التي تستهدف نشر الفوضى في العالم العربي للعمل على إعادة تشكيله بما يراعي المصالح الأمريكية، والمصطلح ليس من ابتكار "كونداليزا رايس" في الواقع، ولكنه مصطلح وارد في الوثيقة الماسونية التي تم كشفها مصادفة عندما لقي الفارس -الذي كان يحملها لجهة لم تُعرَف أبدًا- مصرعه بوساطة صاعقة أصابته في ليلة مطيرة، وإنما هي ردَّدته وكأنه مصطلح جديد والمصطلح في حد ذاته خدعة كبيرة فليس من المنطقي أن تكون هناك فوضى خلَّاقة فهو تناقُض لفظي غير موجود، إلا لو قنعنا بأننا لو تركنا قردًا أمام لوحة مفاتيح كمبيوتر يمكنه أن يكتب عشوائيًّا قصيدة عصماء يتغنى بها الكل!!!.. ولكن ما معنى الانتقال من الهجان إلى حروب الجيل الرابع؟!..

الواقع أن ذلك الانتقال من جيلٍ إلى جيل من الحروب، حمل معه بالتبعية انتقالًا مماثلًا من جيل إلى جيل في عالم الجاسوسية.. البعض سيتصور أنه قد استوعب كل شيء من العبارة السابقة وسيربط هذا بتطوُّر التقنية وسيؤكِّد أنه لم يعد هناك داعٍ لوجود أمثال رفعت الجمال في وجود الأقمار الصناعية والكاميرات الدقيقة والكمبيوتر والإنترنت.. والواقع أن هذا غير صحيح، وهذا التصوُّر خاطئ تمامًا فزمن الجاسوس البشري لم ينتهِ بعد، ولكنه تطوَّر مع تطوُّر التقنيات الحديثة؛ فجاسوس العصر الحديث لم يعد بحاجة إلى ميكروفيلم مع صعوبة تهريبه وتسريبه للعدو، ولم يعد بحاجة إلى حبر سري أو كربون أبيض أو أجهزة لا سلكي وما يصحبها من أماكن لإخفائها وهوائيات لتأمين إرسالها..

كل هذه الوسائل تطوَّرت وصارت تقنياتها سهلة النقل عبر شبكات الإنترنت وهواتف الأقمار الصناعية وحتى وسائل الاتصال الحديثة، ولكن يبقى العنصر البشري الذي لا يمكن الاستغناء عنه حتى في ظِلّ النمو المتطرد في نظم الذكاء الاصطناعي؛ فالأقمار الصناعية تستطيع تحديد موقعك وتصويرك وتحليل نوع ثيابك أيضًا عبر مقاييس الطيف، ولكنها لا تستطيع سبر أغوارك أو معرفة ما تنتويه أو ما يدور في ذهنك، ولكنَّ صديقًا مقرَّبًا أو صديقة مدلَّلة يمكنهما استخلاص ما يدور في عقلك باللجوء إلى الوسيلة المناسبة.. الذي تغيَّر من جيل إلى جيل في عالم الجاسوسية هو الهدف الأساسي للتجسُّس؛ ففي كثير من الأحيان لم تعد الجاسوسية تسعى للحصول على معلومات عسكرية سرية فحسب، وإنما على معلوماتٍ صناعية أو تجارية أو ربما اقتصادية، حتى إن بعض الدول كالصين مثلًا، تعتبر أن التقرير الاقتصادي السنوي لها يعتبر من أحد الأسرار التي لا يجوز نشرها..

وفي أحيانٍ أخرى يكون هدف الجاسوس هو السعي على نحوٍ مباشر أو غير مباشر لإنجاح مخططات حروب الجيل الرابع، والعمل على إفشال الدولة أو إثارة الفوضى والبلبلة داخلها، عن طريق نشر الشائعات والأكاذيب واختلاق الاتهامات التي تشكك الشعوب في نظُم حكمها ومؤسساتها.. والجاسوسية في هذه الحالة يصعب كشفها وإثباتها لأنها ستتخذ صورة حرية الرأي وحق الإنسان في التعبير، مما يمنح أصحابها مبرِّراتٍ أنيقة تعوق اتهامها أو محاكمتها.. والبعض - ومنهم رجال أمن للأسف- يشيرون أحيانًا إلى أننا أمام الجيل الخامس للحروب، ولكن هذا غير صحيح إطلاقًا وإنما تربكهم الوسائل المتعدِّدة واللا متناهية لحروب الجيل الرابع والتي قد تتخذ من الأشكال والتنوعات كل ما من شأنه نشر الفوضى وتدمير الاقتصاد وبذر الفرقة وإضعاف الأمة؛ فقد تتخذ في بعض الأحيان جمع النقد الأجنبي وإخفاءه؛ ليقل المعروض منه للتداول فيرتفع سعره وينخفض سعر العملة المحلية بالتالي، أو حرق بعض المصانع والمنشآت الحيوية التي يكلف إصلاحها أو إعادة بنائها

الكثير، أو تحريض بعض فئات الشعب على فئات أخرى، وفي بعض الأحيان تلجأ حروب الجيل الرابع لطرح كميات هائلة من العملة المزيَّفة في الأسواق مما يضعف الاقتصاد ويخفض من سعر العملة، وفي أحيان أخرى إلى نشر أنواع مختلفة من المخدرات وتشجيع الشباب على استخدامها؛ لتدمير البنية الأساسية للشعب والمتمثِّلة في شبابه..

ومن أهم ما تلجأ إليه حروب الجيل الرابع هو الشائعات بأنواعها.. الاستراتيجية والتكتيكية والتشكيك في كل ما تقدِّمه الدولة للمواطن، والإساءة إلى أي تقدُّم تحرزه الدولة.. ربما كان زمن الهجان هو زمن حروب المخابرات العنيف،ة ولعبة شطرنج الذكاء بين عقول وعقول، ولكن زمن حروب الجيل الرابع هو زمن إفشال وإسقاط الدول عبر اللجوء إلى كل الألعاب القذرة الممكنة، ولهذا فالتصدي لحروب المخابرات في زمن الهجان لا يمكن مقارنته بالحرب المستميتة التي لا بُدَّ وأن تقودها مخابرات وشعوب الدول المستهدفة ضد تلك التي تبذل كلَّ الجهد لاستهداف كل دولة أو أمة ترى أن صعودها يهدِّد وجودها وتفوُّقها.. ولو بعد ألف عام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (١١)

# الحشاشون.. الوهم والحقيقة

منذ ظهرت جماعة الإخوان المسلمون للوجود، عند تأسيسها في الثاني والعشرين من مارس عام ١٩٢٨م، على يد مؤسسها حسن البنا (١٤ أكتوبر- ١٢ فبراير ١٩٤٩م) تظهر وتختفي على نحوٍ غير منتظم مقارنة بينها وبين جماعة قديمة يطلق عليها التاريخ اسم (جماعة الحشاشين) وهي طائفة إسماعيلية نزارية، انفصلت عن الفاطميين في أواخر القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي لتدعو إلى إمامة نزار المصطفى لدين الله ومن جاء من نسله، ولقد اشتهرت تلك الطائفة ما بين القرن الخامس والسابع الهجري- الحادي عشر والثالث عشر الميلادي، ولقد أسس الطائفة "الحسن بن الصباح" (٤٣٠ هـ – ١٠٣٧م – ٥١٨ هـ – ١١٢٤م) والذي قضى معظم حياته منذ تأسيس طائفته في قلعة الموت وهي قلعة حصينة كمعظم معاقل الطائفة، ترتفع ما يقرب من كيلو مترين عن سطح الأرض في فارس التي اتخذها مركزًا لنشر دعوته وترسيخ أركان دولته في إيران والشام، ولقد جلب هذا إلى طائفته عداءً شديدًا مع الخلافة العباسية والفاطمية والدول والسلطنات الكبرى التابعة لهما، كالسلاجقة والخوارزميين والزنكيين والأيوبيين، بالإضافة إلى الصليبيين.. وعلى الرغم من الحروب المستمرة طوال ما يقرب من ثلاثة عقود، لم تنجح تلك الخلافات والدول في هزيمة واستئصال تلك الجماعة التي اعتمدت استراتيجيتها العسكرية على الاغتيالات الفجة التي يقوم بها من أسموهم بالفدائيين الذين لا يأبهون الموت في سبيل بلوغ أهدافهم، وكثيرًا ما كانوا ينفذون تلك الاغتيالات في العلن، ودون المبالاة بالنتائج، وربما لهذا تبرز المقارنة بينهم وبين التفجيريين من الإرهابيين في زمننا هذا؛ مما جعل هؤلاء أيقونة رعب في قلوب الحكام والأمراء والمعادين لهم في تلك الفترة، خاصة وأنهم قد تمكنوا من اغتيال العديد من الشخصيات المهمة جدًّا في ذلك الوقت مثل الوزير "السلجوقي نظام الحكم، والخليفة العباسي المسترشد والراشد، وكونراد ملك بيت المقدس..

وعلى الرغم من أن التاريخ كله يطلق على طائفة الحسن بن الصباح اسم "الحشاشون" إلا أنه لا يوجد تفسير واضح للتسمية؛ ففي الرسالة التي كتبها الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله عام ١١٢٣م والمرسلة إلى الإسماعيليين في الشام (إيقاع الصواعق الأرغام) -والتي كان الغرض منها نقض مزاعم المصطفى لدين الله بالإمامة، والتأكيد على شرعية الخط المستعلي- استخدم الآمر بأحكام الله مصطلح الحشيشية مرتين من دون تقديم سبب واضح للتسمية..

مرة أخرى تمت تسمية النزاريين بالحشيشية في أقدم كتاب سلجوقي معروف للأخبار كتبه عام ١١٨٣م "عماد الدين الأصفهاني" (نصرة النصرة) من دون تقديم سبب لاستخدام التسمية، ولكنه استخدم في الوقت نفسه مصطلحيّ "الباطنية، والملاحدة" لوصف أبناء الطائفة نفسها.. أما المؤرخون الفارسيون في الفترة الإليخانية، ومنهم "الخوميني" و"رشيد الدين" وهما المصدران الرئيسيان لتاريخ الطائفة النزارية في فارس؛ فلم يستخدما مصطلح الحشيشية أبدًا، وإنما استخدما مصطلح الملاحدة فحسب.. وتجدر الإشارة إلى أنه لا النصوص الإسلامية غير الإسماعيلية المعاصرة والتي كانت معادية للطائفة النزارية، لم تستخدم أبدًا مصطلح الحشيشية، وكل المصادر العربية لم تُشِر إليهم بهذا المصطلح أيضًا.. ولم تتهمهم أبدًا باستخدام الحشيش!!..

وهنا يحار المرء في سبب تسمية الطائفة باسم طائفة "الحشاشون" في التاريخ، بل لقد تم اشتقاق المصطلح الغربي (Assassins) من اسم "الحشاشون" وهو مصطلح يعني القتلة أو المغتالين، وهو لفظ أطلقه الصليبيون على الفدائية الإسماعيلية الذين كانوا يفتكون بملوكهم وقادة جيوشهم فلقبوهم بالأساسين.. والبعض يقول إن المصطلح مشتق من الحساسين نسبة إلى أتباع الحسن بن الصباح الذي أنشأ تنظيم القتلة الفدائيين..

والبعض يقول إن مصطلح "أساسين" مشتق من العساسين أو العسس الذي يسهرون لحراسة حصون الطائفة والدفاع عنها، وكذلك نجد من يؤكِّد أن "أساسين" تعني المؤسسين الذين أسسوا قوتهم في قلعة الموت على قمة الجبال.. وهكذا لن تجد من يمكنه الجزم بسبب مقنع لتسمية تلك الطائفة بالحشاشين، ولكن المصطلح ارتبط بالطائفة وأدى إلى ظهور مشتقات اسمها في اللغات الغربية حاملة معنى القتل والاغتيال والغيلة والغدر.. وفي رحلات الرحالة الإيطالي الأشهر ماركو بولو، نجد ما أطلق عليه أسطورة الفردوس وفيها يصف قلعة الموت بقوله: "كانت فيها حديقة كبيرة تزخر بأشجار الفاكهة، داخلها قصور منيفة، وجداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وجاريات حسان يغنين ويرقصن ويعزفن الموسيقى ويجدن فن الحب والغزل؛ لكي يوهم الحسن بن الصباح أتباعه بأن هذه هي الجنة، ولم يكن يدخلها إلا من ينتقيه هو".. ويقول ماركو بولو إنه كان يخدر من يشاء بالحشيش، ثم يتم نقله إلى الحديقة، وعندما يفيق يتصوَّر أنه في الجنة وحوله كل ما يشتهي من مُتَع وملذات، وبعد أن ينعموا ويشبعوا شهواتهم يتم تخديرهم مرة أخرى وإخراجهم من الحديقة فيشعرون أنهم خرجوا من الجنة، وهنا كان يطلب منهم اغتيال فلان أو علان كوثيقة للعودة إلى الجنة وكان يقنعهم بأنهم لو لقوا حتفهم خلال العملية ستأتيهم الملائكة لتحملهم إلى الجنة

والنعيم.. رواية ماركو بولو قد تستطيع خداع البعض ممن سيجدون فيها صورة مثالية للخداع أو من سيربطون بينها وبين ما يفعله متطرفو اليوم، مع الفارق عندما يوهمون ضعاف العقول بتفجير أنفسهم بحجة أنه فور أن يلقوا مصرعهم ستحيط بهم الحور العين في الجنة.. نفس الأسلوب مع اختلاف الزمن والمنظور..

وعلى الرغم من هذا فرواية ماركو بولو أشبه بالروايات الخيالية الجامحة، وخاصة أن قلعة الموت قد أبيدت عام ١٢٥٦م في حين ولد ماركو بولو عام ١٢٥٤م وهذا يعني أنه من المستحيل أنه رأى ما وصفه وهو بعد في الثانية من عمره، ولا أحد يدري من أين أتى بما وصفه، وربما من بعض الروايات الأسطورية التي تردَّدت بعد هلاك الحشاشين وما تركوه من أثر في تلك الحقبة.. وبغض النظر عن التسمية، فالتاريخ يقول إن الحسن بن الصباح قد غادر القاهرة بعد دراسة عقائد المذهب الإسماعيلي، ووصل إلى أصفهان عام ١٠٨١م ليبدأ رحلته في نشر تعاليم العقيدة الإسماعيلية، وركز اهتمامه على أقصى الشمال الفارسي بإقليم اليلم حيث نجح في اكتساب العديد من الأنصار في تلك المنطقة وكان منشغلًا بإيجاد قاعدة يمكنه منها نشر عقيدته في كل البلاد والابتعاد في الوقت ذاته عن خطر السلاجقة وبحث عن معقل ناء ومنيع يكون ملاذًا آمنًا له ولجماعته فوقع اختياره على قلعة الموت وهي حصن مقام فوق صخرة عالية ترتفع ما يقرب من كيلو مترين وليس لها سوى مدق ضيق لبلوغها مما يسهل حمايتها والدفاع عنها ويصعب على أي قوة معادية الوصول إليها في الوقت ذاته..

ولقد تسلَّل الحسن إلى القلعة سرًا يوم الأربعاء الموافق ٣ سبتمبر ١٠٩٠م بفضل أنصاره الذين زرعهم هناك، وظلَّ متخفيًا داخلها لبعض الوقت حتى قويت شوكته وكثر أتباعه وأمكنه السيطرة على القلعة كلها، وهنا طرد مالكها الأصلي منها وأعطاه ثلاثة آلاف دينارًا ذهبيًّا ثمنًا لها، وبذلك أصبح هو سيد قلعة الموت التي أدار منها حملته ولم يغادرها طوال خمسة وثلاثين عامًا حتى وفاته.. وعلى عكس السائد في تلك المرحلة من اعتبار المواجهات المباشرة شجاعة تكرِّم المرء حيًّا وتعطر ذكراه بعد وفاته اعتمد هو نظام الاغتيالات الانتقائية للشخصيات البارزة في دول الأعداء بدلًا من الخوض في حروب ومعارك تقليدية قد تؤدي إلى وقوع عشرات القتلى من الجانبين، وهكذا أسس فرقة من أكثر أتباعه المخلصين له وللعقيدة الإسماعيلية، وأطلق عليهم اسم "الفدائيين"، ولقد قام بتدريبهم على نحو احترافي يسبق عصره على فنون التنكر والفروسية والاستراتيجيات والقتل، وعلمهم الحديث بأكثر من لغة ولسان، حتى صاروا قوة لا يستهان بها، وكان أكثر ما يميزهم هو استعدادهم للموت في سبيل تحقيق هدفهم.. وكان على الفدائيين الاندماج في جيش العدو أو البلاط الحاكم، بحيث يمكنهم الوصول إلى المناطق

الاستراتيجية حتى ينفذوا مهمة القتل والاغتيال على نحو أشبه بقهر المستحيل، ومن هنا كان مصدر شهرتهم ورعب الكل منهم.. وعبر ثلاثة قرون نفَّذ الفدائيون اغتيالات ضد الأعداء الدينيين والسياسيين للإسماعيلية، وكانت في معظمها تتم في أماكن عامة، وفي بعض الأحيان كانوا ينتحرون بعد التنفيذ تجنبًا للوقوع في أيدي الأعداء.. ولقد شن السلاجقة عدة هجمات وحروب عنيفة في محاولة لقهر الحشاشين في قلعة الموت، إلى أن قرَّر أحد السلاطين اللجوء إلى استراتيجية مختلفة بعد أن أدرك أن أيَّ هجوم مباشر للاستيلاء على قلعة الموت مستحيل..

ولهذا فقد حاصر قلاع الحشاشين وراح يضربها بالمنجانيق لسنوات حتى أوشكت على الاستسلام لولا أن وصلته الأخبار بوفاة السلطان محمد فتفرق الجند وانفض الحصار ونجا الإسماعيليون ولكن إلى حين، فالموت كان في انتظارهم على نحوٍ مختلف تمامًا.. فمع الوقت نمت الحركة وقويت وتعملقت وصارت منافسة للدولة، بل صارت أشبه بدولة تقيم التحالفات، وتعقد المعاهدات، وترسم السياسات حتى بدا وكأنها ستسود بلاد فارس والشام تمامًا حتى ظهر طاغية جديد لم يعمل له الإسماعيليون حسابًا ولم يقدروا قوته حقَّ قدرها وهو هولاكو خان (١٢١٧م- ٨ فبراير ١٢٦٥م) والذي أتى على رأس جيش مغولي جرار، وأدرك أن الإسماعيلية هم القوة الأولى فوجَّه قوته وضرباته إليهم، وهنا وقعوا في أكبر خطأ في حياتهم؛ إذ بالغوا في تقدير قوتهم واستهانوا بقوة خصمهم، ولكن المغول لم يهابوا القلاع الحصينة ولا الطبيعة الوعرة وانقضوا على الطائفة بكل عنف ووحشية في فارس عام ١٢٥٦م، وكانت واحدة من أبشع المذابح التي شهدها التاريخ إذ لم يرحم المغول شيخًا أو صغيرًا أو حتى امرأة، وذبحوا الكل بلا رحمة وأحرقوا القلاع ودمروها، وبهذا انهارت الطائفة تمامًا في فارس بعد ثلاثة قرون من الإرهاب والاستبداد وإثارة الرعب والفزع..

أما في سوريا فقد كان الحشاشون قد شاركوا الآخرين في التصدِّي للتهديد المغولي، وحاولوا كسب ثقة المماليك بإرسال السفراء والهدايا، وعلى الرغم من أن الظاهر بيبرس لم يبدِ عداءً تجاههم في البداية إلا أنه لم يكن يتسامح مع وجود جيب مستقل في قلب سوريا، ولهذا فقد أمر بجمع الضرائب والرسوم منهم وكانت شوكتهم قد ضعفت بعد ما حدث لرفاقهم في فارس فخضعوا وصاروا يدفعون الجزية بدلًا من أن كانوا يحصِّلونها من أمراء البلدان المجاورة، وسرعان ما دب الخلاف بين بيبرس وبينهم، فعزل رئيسهم وأتى به سجينًا إلى القاهرة ثم استولى عام (١٢٧١م – ٦٦٩ هـ) على قلعتيّ "العليقة" و "الرصافة"، وسقطت قلعة الخوابي في العام نفسه، ثم راحت باقي قلاع الحشاشين تسقط عام (١٢٧٣م- ٦٧١ هـ) لتنتهي بذلك دولة الحشاشين في

بلاد الشام كما انتهت من قبل في فارس، وبدأ التاريخ يأخذ مسارًا جديدًا.. التاريخ الذي دومًا ما يدور في دوائر ويعيد نفسه.. ولا يتعلم أحد.. للأسف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (١٢)
# بوَّابة النجوم

“كل شيء مباح في الحب والحرب”.. من أشهر المقولات عن الحروب وأكثرها شيوعًا وانتشارًا، والواقع أنها الأكثر تطبيقًا في عالم الواقع أيضًا؛ فالحروب حالة وحشية قاسية، وعلى الرغم من كل محاولات تجميلها فلا رحمة فيها بين المتحاربين وكل شيء مباح ومتاح ما دام يمكن أن يقود إلى النصر أو يبعد شبح الهزيمة المُر.. وفي النهاية التاريخ يكتبه المنتصرون؛ فمهما كان ما فعلوه أو ارتكبوه للوصول إلى النصر فيمكنهم تجميله وتحسينه أمام التاريخ وجعله أقرب إلى البطولة منه إلى الخسة والنذالة..

وأسلحة الحروب لا حصر لها منها ما صار معروفًا، ومنها ما هو طي الكتمان أو تحت التجربة والاختبار.. ولقد شهد العالم في الحرب العالمية الأخيرة (الأوَّل من سبتمبر 1939 – الثاني من سبتمبر 1945م) والتي راح ضحيتها ما يقرب من مائة مليون شخص بين مدنيين وعسكريين سلاحًا جبارًا أرعب العالم كله في حينه عندما ألقيت القنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشيما اليابانية في السادس من أغسطس عام 1945م، وعلى الرغم من بشاعة وقسوة الحدث وتجاوزه لكل مذبحة عرفها التاريخ؛ فقد جعل هذا السلاح أمريكا تصعد إلى قمة العالم كقوة عظمى لا قبل للآخرين بها وبينما تتباهى أمريكا بقوتها ويرقص الأمريكيون احتفالًا بالنصر، بدأ الاتحاد السوفيتي يبحث عن وسيلة لكشف سر هذا السلاح الجبار والبحث عن سلاح آخر في الوقت ذاته لم يصل إليه الأمريكيون بعد.. ولأن القوات السوفيتية قد حصلت على العديد من ملفات المخابرات الألمانية وأسرَتْ مئاتٍ من رجالها ومن علمائها أيضًا فقد كشفت لها أوراق الألمان عن سلاح لم يَدُر في خُلد أحدٍ من قبل، ولكن الألمان قد قطعوا شوطًا كبيرًا في دراسته واختباره والبحث عن وسيلة لاستغلاله والإفادة منه..

العجيب أن ذلك السلاح لم يرتبط بأي تكنولوجيات أو تقنيات معقَّدة بل ارتبط بعامل متوافر بشدة وشديد الندرة في الوقت ذاته!!.. وهو البشر.. والعبارة ليست معقَّدة ولكنها واقعية وبسيطة للغاية؛ فالبشر سلعة متوافرة بكثرة في كل بلدان العالم، ولكن ما بحث عنه الألمان ودرسوه كان شيئًا شديد الندرة بين بني البشر.. كان القدرات العقلية والجسدية الخاصة.. ففي عام 1941م كشف عالم نازي بالمصادفة البحتة، أن عقول بعض البشر ليست كغيرها من عقول الآخرين، وعلى الرغم من عدم وجود أي اختلاف تشريحي بها إلا أن لديها قدرات مدهشة لا يمتلكها غيرهم ولقد قسَّم ذلك العالم النازي تلك القدرات إلى ثلاث مجموعات كبيرة.. قدرات تتجاوز حدود الزمان والمكان،

وقدرات قاهرة للطبيعة، وقدرات داخلية فائقة.. وعبر أربع سنوات تالية، وبموافقة وتأييد أدولف هتلر نفسه، تواصلت التجارب على تلك العقول البشرية النادرة، ومن خلال قسم علمي خاص حصل على كل الإمكانيات والتمويل اللازم لتحويل تلك التجارب إلى نواة سلاح سري يستحيل كشفه أو حبسه، وخاصة فيما يخص القسمين الأولين القدرة على تجاوز حدود الزمان والمكان وهي لا تعني انتقال المرء بجسده عبر الزمان والمكان، ولكن سفره بعقله إلى عقل آخر يبعد عنه مسافات شاسعة دون أن يبرح مكانه وهي القدرة على نقل الأفكار من عقل إلى آخر، والأهم هو القدرة على قراءة أفكار الآخرين (التليباثي)، وعلى الرغم مما يبدو عجيبًا فقد اهتم فريق عسكري نازي بهذه التجارب بشدة، ولكنه لم ينجح في استخدامها واستغلالها بسبب سقوط ألمانيا ووقوع مجموعة العلماء في أَسْر السوفيت..

وعندما طالع السوفيت كل المذكرات والدراسات حول هذه القدرات العقلية الفائقة بدا لهم الأمر أشبه بالخيال العلمي الجارف في البداية، ولكن ملاحظات العلماء ونتائجهم جعلتهم ينظرون إلى الأمر بجدية أكبر سرعان ما تحوَّلت إلى شغف عسكري لإيجاد فرقة عسكرية من طراز نادر وجواسيس لا يشق لهم غبار يمكنهم معرفة وكشف أدق أسرار العدو دون أي مجازفة أو مخاطرة، فقط بالغوص في عقله وسلب الأفكار منه!!.. الفكرة فكرة التفوق في حد ذاتها جعلتهم ينحون رفضهم واستنكارهم جانبًا، والموافقة على تمويل ورعاية تلك التجارب العقلية كوسيلة لتعويض افتقارهم إلى السلاح النووي الفائق الذي يمتلكه به الأمريكيون..

ولقد حقق علماء الفريق السوفيتي نجاحاتٍ ملحوظة وموثَّقة في مجال توارد الفكر (التليباثي) (Telebathy) وجذبهم أيضًا القسم الثاني من ملاحظات العالم النازي والخاص بالقدرات القاهرة للطبيعة وأهمها القدرة على تحريك الأشياء عن بُعدٍ دون لمسها، أو ما يُطلق عليه (أوتوكاينيزس) (AutoKinesis)..

والعجيب أن وثائقهم تقول إنهم قد حققوا نجاحات ملحوظة في هذا المضمار أيضًا؛ فقد كان لديهم عشرة رجال وامرأتان يمكنهم نقل عملة معدنية من جيبك إلى جيوبهم أو العكس وهم على بُعد عشرين مترًا منك.. وكان سعي العلماء السوفيت هو رفع تلك القدرات، بحيث يمكن للمدربين نقل أجسام أكبر حجمًا وأثقل وزنًا، مثل قنبلة موقوتة أو مسدس ثقيل، إلى جيب عدو يُرَاد اغتياله أو جاسوس لا بُدَّ من منحه سلاحًا؛ لإنقاذه من مأزق حَرِج.. الأقل اهتمامًا من بين الأقسام الثلاثة كان الجزء الخاص بالقدرات الداخلية أو القدرة على شفاء إصابات أو أمراض الجسد من خلال سيطرة العقل وحده..

ربما لأن الدراسات الأولى قالت إن أصحاب ذلك النوع من القدرات يمكنهم ببساطة شفاء أجسادهم ومداواة جروحهم ودرء أمراضهم، ولكنهم لا يستطيعون فعل الأمر نفسه مع الآخرين، مما يجعل جدواهم العسكرية محدودة إلى حدٍّ كبيرٍ..

ولقد كان من الممكن أن تتواصل تلك التجارب والدراسات العقلية الفائقة حتى تبلغ مستوى تعجز العقول عن استيعابه، لولا أنَّ حدثًا ما قلبَ الأمور كلها رأسًا على عقب بغتة.. ففي التاسع عشر من أغسطس عام 1949م أجرى الاتحاد السوفيتي تجربته النووية الأولى في ميدان "سمبيا لاننك" (كازاخستان حاليًا)، ثم أضاف تجربته الثانية في الرابع والعشرين من الشهر نفسه، وأثبت للعالم كله أن أمريكا لم تعد القوة النووية الوحيدة على الأرض، وأنه قد صعد بدوره إلى مركز الدولة العظمى.. وفي نفس الوقت الذي شعر فيه السوفيت بالقوة والعظمة وانحلّت عندهم عقدة النقص النووي، دخل الأمريكيون في حالة الرعب النووي؛ فلسنوات لم يجل ببالهم قَطّ أنه هناك قوة نووية أخرى يمكنها اللحاق بهم بهذه السرعة، ولما كانوا قد سخروا من السوفيت وعادوهم طويلًا خلال سنوات تفوقهم النووي فقد خشوا من انتقام السوفيت وردود أفعالهم بعد أن صاروا يمتلكون السلاح نفسه.. وهكذا انتشرت حمى بناء المخابئ النووية وتزويدها بمخزون من الطعام والشراب كاحتراز لما يمكن أن يؤول الأمر إليه إذا ما جاءت ضربة نووية سوفيتية مباغتة..

كل هذا جاء على حساب دراسات العقول الفائقة فمع الشعور بالتفوُّق النووي أهمل السوفيت تجارب العقول، وأوقفوا تمويلها، وركزوا اهتماماتهم على تجارب الصواريخ التي يمكن أن تنقل قنابلهم النووية إلى مسافات بعيدة.. والعجيب أنه في نفس الوقت الذي أهمل فيه السوفيت تجاربهم حول القدرات العقلية الفائقة حصل الأمريكيون عبر أحد جواسيسهم والذي يحظى بمكانة عسكرية سوفيتية رفيعة، على كل وثائق التجارب العقلية السوفيتية، والأعجب أنهم قرروا اعتبارها بداية لدراسات خاصة بهم حول الأمر ذاته.. ولقد حقق الأمريكيون أيضًا نتائج مثيرة للغاية في هذا المضمار، إلا أنهم أدركوا في النهاية عقم الإنفاق على هذه الأمور بسبب الندرة الشديدة لأصحاب تلك العقول ومحدودية ما يمكنهم بلوغه من قدرات.. وهنا فكروا في مجالات مختلفة كثيرًا وأكثر عجبًا وغرابة في الوقت ذاته، ولكنها هذه المرة كانت علمية تمامًا، ولا تعتمد على الندرة من بني البشر.. بدأ كل هذا في عام 1997م.. ففي ذلك العام توصل العالم الروسي (تشيرنوبروف) إلى صنع أول آلة زمن حقيقية وهي آلة بدائية علمية وليست كتلك التي نراها في أفلام السينما، بل وتختلف حتى عمَّا جاء في نظرية أينشتاين حول جسر أينشتين – روزين فقد اعتمد على استخدام مجالات كهرومغناطيسية فائقة جعلت كثافة آلته من الداخل تختلف عن كثافتها من الخارج، ووضع ساعة داخلها وأخرى

خارجها مضبوطتين على التوقيت نفسه، وعقب تجربته كان هناك فارق زمني مقداره ثلاثون ثانية بين الساعتين..

وهكذا أثبت (تشيرنوبروف) أن السفر عبر الزمن ممكنٌ، وتجاوز الحاجز الذي تصوَّره الكل مجرَّد خيال علمي منذ كتب "هربرت جورج ويلز" (1 سبتمبر 1866 – 13 أغسطس 1946م) روايته الشهيرة آلة الزمن في عام 1895م... الأهم أن المخابرات الأمريكية قد أدركت أن الانتقال عبر الزمن حقيقة ظهرت نبتتها الأولى وسرعان ما تزدهر وتثمر وعندئذ ستصير سلاحًا جبارًا من يمتلكه لن يمتلك المستقبل وحده بل الماضي والتاريخ أيضًا..

وهنا وُلد أول برنامج أمني غير تقليدي في أي جهاز مخابرات في العالم وهو برنامج يسعى لدراسة واستيعاب كل الظواهر التي كانت يومًا من الخيال العلمي فحسب ومحاولة نقلها إلى عالم الواقع واستخدامها كسلاح جبار للسيطرة على العالم حاضره ومستقبله.. وربما ماضيه أيضًا.. البرنامج استوحى اسم فيلم أمريكي ظهر في عام 1994م من بطولة النجم "كيرت راسل" ومن إخراج "رولاند ايدتش" وهو فيلم (بوابة النجوم) (Stargate).. والاسم في حد ذاته مستوحى من اسمٍ أطلقه علماء ألمان في عشرينيات القرن العشرين، على جسم حجري ضخم في المنطقة الخضراء في بغداد العراق، قالوا إنه كان يحمل باللغة الأشورية اسم (بوابة النجوم)..

المهم أن المشروع الأمريكي لم يُعلَن عنه سوى اسمه أما ما يدور فيه وما يحدث داخله فما زال طي الكتمان حتى لحظة كتابة هذه السطور.. ولكن في عام 2004م ادعى أحد الأشخاص أنه كان يعمل في المنطقة الحادية والخمسين وهي المنطقة المحاطة بالكثير من الأسرار، والتابعة لسلاح الجو الأمريكي، وأنه كان يعمل ضمن طاقم (بوَّابة النجوم)، وأن ذلك البرنامج أشبه بالخيال العلمي الجامح؛ إذ تدور التجارب فيه حول السفر عبر الزمن والانتقال الآني عبر الزمان والمكان وإخفاء الأجسام وتطوير قدرات العقل البشري، وتصغير الأجسام والأشخاص وغيرها من الأمور التي يصعب على العقل العادي استيعابها.. الرجل لم يقدِّم دليلًا واحدًا على ما يقول، ولكنه لم يلبث أن اختفى فجأة لعدة أيام ظهر بعدها في مستشفى للأمراض العقلية والنفسية وهي لعبة أمريكية شهيرة× لفقدان الشخص مصداقيته ووصمه بالهوس والهذيان.. الرجل قال قبل هذا إن تلك التجارب فوق الطبيعة لم تكن مجرَّد دراسات فحسب، ولكنها نتائج تفوق التصوُّر أيضًا، واستشهد في حديثه بالرئيس الأمريكي السابق "باراك أوباما"، وطالبه بالإدلاء بشهادته في هذا الشأن، وتم تجاهل مطالبه هذه تمامًا.. وحتى اليوم لا يمكن الجزم بحقيقة برنامج بوَّابة النجوم هذا، ولا يمكن تأييده أو نفيه وإن كانت تجاربه فوق

العقلية قد حققت نجاحًا بالفعل، وأمكن له تغيير التاريخ، فكيف سيمكننا أن نعرف هذا؟!.. كيف؟!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# (١٣)

# وختامًا، بعد الحرب

آلاف الكتب تكتظ بها أرفف المكتبات العالمية في كل أنحاء العالم عن الحروب وفنونها واستراتيجياتها وتكتيكاتها، ولكن من النادر جدًّا أن تجد كتبًا عربية أو عالمية تتحدَّث عن أيدولوجيات ما بعد الحروب؛ فالحروب ليست هدفًا في حد ذاتها لا في أرض المعارك ولا حتى في الحياة المدنية..

الحروب مجرَّد وسيلة؛ لبلوغ هدف ما، ولهذا فدومًا ما تنتهي الحروب بعالم شديد الاختلاف عما كان عليه في بدايتها إذا ما تحقَّق الهدف منها.. أمريكا كانت مستعمرة بريطانية لزمن طويل ثم حاربت لتنال استقلالها (19 أبريل 1775- 3 سبتمبر 1783م) بسبب تعنُّت البرلمان البريطاني تجاه مستعمراته وقاطنيها في أمريكا إذ حرمهم من أن يكون لهم أي تمثيل فيه، وعندئذ رفع الأمريكيون في الولايات الثلاثة عشر (آنذاكٍ) شعارَ "لا ضرائب بدون تمثيل برلماني"، ومع زيادة حالة التمرُّد تحوَّل الأمر إلى ثورة أعلنت خلالها الولايات الاستقلال عن بريطانيا فاندلعت الحرب التي انتهت باستقلال أمريكا عن بريطانيا وانسحاب تلك الأخيرة من المستعمرات لتتكوَّن نواة الولايات المتحدة التي تحتفل باستقلالها حتى يومنا هذا في الرابع من يوليو من كل عام، وهو اليوم الذي تم فيه توقيع وثيقة الاستقلال.. الحرب إذًا بدأت بسبب وانتهت بنتيجة هي نفسها ذلك السبب الذي اندلعت من خلاله.. وحرب أكتوبر 1973م اندلعت لتحرير سيناء واسترداد الكرامة المصرية، وعلى الرغم من المزاعم الإعلامية الإسرائيلية فقد انتهت وقواتنا على أرض سيناء وخط بارليف تحت سيطرتنا والعَلَم المصري يرتفع على أجزاء من أرض الفيروز.. الحرب اندلعت أيضًا لسببٍ ووضعت آوزارها مع تحقُّق جزءٍ منه.. هذا لأن الحروب تندلع دومًا وِفقًا لأيدولوجية واضحة ومنهج يحدِّد مسارها ويرسم خطواتها ويقر أهدافها.. والأهم.. يضع مفهوم لما بعد الحرب.. ذلك وِفقًا للأيدلوجية التي اندلعت بها الحرب ذاتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## (تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

**Link – لينك القنـــــاة**

# الفهرس..


**عن الكتاب..**

**إهداءٌ..**

**البداية..**

(١)
*جيل وراء جيل*
(٢)
*السلاح الجبار*
(٣)
*ليس بالقوة*
(٤)
*ثبات.. وسُبات*
(٥)
*المستقبل.. أمس*
(٦)
*هوس المؤامرة*
(٧)
*إرهاب*
(٨)
*خلف القضبان*
(٩)
*والعقول تتصارع*
(١٠)
*من الهجان إلى الجيل الرابع*
(١١)
*الحشاشون.. الوهم والحقيقة*
(١٢)
*بوَّابة النجوم*
(١٣)
*وختامًا، بعد الحرب*